المبغى

العنوان: المبغى / قصص قصيرة

الكاتب: حازم ضاحي شحادة

الطبعة الأولى: 2019

تصميم الغلاف: ASS

ISBN:978-9933-591465

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، من دون أذن خطّي مُسبق من الناشر.

الناشر: آس للطباعة والنشر

سوريا . بانياس

0947847365 /0996772342

043772332

E-mail:assdar2021@gmail.com

حازم ضاحي شحادة

المبغى

قصص قصيرة

أنَا شَخصٌ بسيطٌ جِدَّاً، ابتِسَامَةٌ مِن امرأةٍ جميلةٍ تَجعلنِي سَعيداً.

حازم

مُعاون شُوفِير

.أعملُ الآنَ سَائِقَاً لِـ سِرفيس، مَا رَأيكَ أن يَعمَلَ ابنكَ مَعِي مُعاونَ شُوفير؟

هَذا مَا قَالَهُ قَرِيبُنَا لأبِي ذَاتَ صَيفٍ مِن عَامِ 1994. كُنتُ حِينَهَا فِي الصَّفِّ السَّادِسِ الابتِدَائِي وَالسَّرَافِيسُ . الحَافِلَاتُ الصَّغِيرَةُ . مُوضَةٌ جَدِيدَةٌ يُقبِلُ النَّاسُ عَلَى رُكُوبِهَا عِوَضَاً عَنِ الحَافِلَاتِ الكَبِيرَةِ . البَاصَات . وَقَد أطلَقُوا عَلِيهَا فِي ذَلكَ الزَّمَنِ الذُّبَابَة البَيضَاء تَيَمُّنَاً بِالحَشَرةِ التِي تَفتِكُ بِزهرِ الَّليمُونِ وَإسقَاطَاً رُومَانسِيَّاً لِلدَّلَالَةِ أنَّ السَّرَافِيس أجهَزَت عَلَى الحافلات.

.يَا وَلَد

- أمر ؟!

- عَمُّكَ يُرِيدُكَ أن تَعمَلَ مَعَهُ مُعاون شُوفير خِلالَ إجازةِ الصَّيفِ وَسَيُعطِيكَ فِي اليومِ خَمسِينَ لَيرَة.

- مُوَافِق.

أَجبتُ بِلا تَرَدُّدٍ فَبِخَمسِينَ لَيرةٍ أستَطِيعُ شِراءَ الكَثيرِ كَمَا كُنتُ أَعتَقِد.

هَكَذَا، بَاشَرتُ صَبِيحَةَ اليومِ التَّالِي العَمَلَ مَع (أبِي فَارِس). لِمُعَاونِ الشُّوفِيرِ صِفَاتٌ لَا بُدَّ مِن تَوفُّرِهَا كَي تَكُونَ الشَّخصِيَّةُ مُكتَمِلةَ العَنَاصِرِ أَهَمُّهَا أن يَستَطِيعَ

القَفزَ مِنَ السِّرفِيسِ قَبلَ تَوَقُّفِهِ بِحَركةٍ استِعرَاضِيَّة. لَطَالَمَا جَذَبَتنِي هَذِهِ الحَرَكَةُ لِذَا قَرَّرتُ أن أُنَفِّذَهَا فِي أقرَبِ فُرصَة.

يَمتَازُ المُعَاوِنُ أيضَاً بِطَيِّ العُمُلَاتِ الوَرَقِيَّةِ لِنِصفَينِ طُولِيَّاً وَوَضعِهَا فِي رَاحَةِ اليَدِ مَع ضَرُورَةِ (البَصبَصَة) عَلَى الفَتَيَاتِ وَالمُسَارَعَةِ إلَى غَمزِ التِي يُلَاقِي مِنهَا القُبُول.

.(عَ الضَّاحِيَّة عَ مَهلَك مَعلِّم).. (خَالِص.. رُوح)..

فِي اليَومِ الثَّانِي مِنَ العَمَلِ عَقَدتُ العَزمَ عَلَى تَنفِيذِ الحَرَكَةِ السِّحرِيّةِ وَقَبلَ أن يَقِفَ السِّرفِيسُ بِثَوَانٍ .. قَفَزت.

فَتَحتُ عَينَيَّ، سَمَاءٌ وَبَعضُ الغُيُوم..

.مَا زِلتُ عَلَى سَطحِ الأرض.

قُلتُ لِنفسِي بَينَمَا كَانَت أعينُ الرُّكَّابِ تُبَحلِقُ بِي وأبُو فَارِس يَقُول:

.(صَرلَك شِي؟) (بتقدِر تُوقِّف؟)..

نَعَم..

لَقَد قَفَزتُ مِنَ السِّرفِيسِ لكِنَّ الرِّيَاحَ مَا جَرَت كَمَا اشتَهَت سَاقَايَ. سَقَطُّتُ عَلَى ظَهرِي وَارتَطَمَ رَأسِي بِالأَرض. لَم أَعُد أذكُرُ تَمَامَاً لَكِنَّنِي وَقَفتُ (وَمَا فِي المُوتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ) كَأنَّ شِيئَاً لَم يَكُن وَتَابَعتُ العَمَل.

كَهلٌ بِمَلامِحٍ ضَبَابيَّةٍ قَال:

.سَامَحَكَ اللهُ يَا بُنَي، مَا زِلتَ صَغِيرَاً عَلَى هَذهِ الحَرَكَات.

فِيمَا بَعد، سَارَتِ الأمُورُ عَلَى مَا يُرَام حَتَّى جَاءَ اليُومُ الَّذِي قَرَّرتُ فِيهِ أن أثأَرَ لِصُورَتِي التِي اهتَزَّت أمَامَ النَّاس.

مَا أن يَصِلَ السِّرفِيسُ إلَى سَاحَةِ الشِّيخ ضَاهِر سَأقفزُ قَفزَتِي العَجِيبَةَ التِي تَجعَلُنِي أسطُورَةً بَينَ مُعَاوِنِي (الشُّوفِيرِيَّة).. نَعَم.. سَأكُونُ سُوبِرمَان السَّاحَةِ بِلا مُنَازِع. لَن أدَع أحَدَاً مِن بَقيَّةِ المُعَاوِنِين يَجرُؤُ عَلَى النَّظَرِ فِي عَينِيّ. سَأكُونُ بَطَلاً.. سَيُطلِقُونَ عَليَّ لو كُنَّا مِنَ الهُنُودِ الحُمر، (القَافِزُ مِنَ السِّرفِيس). لَن أسمَحَ لِلفَشَلِ فِي القَفزَةِ المَاضِيَةِ أن يُعِيقَنِي عَن إتمَامِ رَسمِ (الكَارِيزمَا) الخَاصَّة بِمُعَاوِنِ الشُّوفِيرِ الأوَّلِ فِي اللَّلاذِقيَّةِ.. حَضرَةُ جَنَابِي.

هَا هُوَ السِّرفِيسُ يَقتَرِبُ مِن سَاحَةِ الشِّيخ ضَاهِرِ فَتَهيَّأ .. رُحتُ أشَجِّعُ نَفسِي.

لَا بُدَّ أن تَكُونَ قَفزَةً تَعشَقُكَ صَبَايَا اللَّلاذِقيَّة بَعدَهَا. تَجَهَّز، استَعِد، انطَلِق. فَتَحتُ بَابَ السِّرفيس وَقَفَزت.

أذكُرُ صَرَخَاتِ النُّسوَةِ وأبُو فَارِس يَضربنِي عَلَى خَدِّي بِرَاحَةِ يَدِه.

أَحَّدُهُم يَقُول:

. اسكُبُوا مَاءً عَلَى وَجهِه. كُنتُ مُمَدَّداً وَسطَ الشَّارِعِ والمَّارَةُ يَنظرُونَ بِاستِغرَابٍ وَخَوف.

قَرِيبُنَا يُوشِكُ عَلَى المُوتِ جَزَعَاً مِن أن أفَارِقَ الحَيَاةَ وَأنَا مُعَاوِنٌ لَه.

قُلتُ كَمَخمُورٍ:

. أينَ أنَا؟

ساعدني الرَّجُلُ في ركوبِ السِّرفِيسِ ثُمَّ قَادَ مُسرِعَاً إلَى المُستَشفَى.
بَعدَ أن اطمَأنَّ لِعَدَمِ وجودِ إصَابَةٍ عَادَ بِي إلَى المَنزِلِ وَقَالَ لِوَالِدِي:

. استَلِم، ابنُكَ هَذَا رُبَّمَا كَانَ مِن جَمَاعَةِ عَبَّاسِ بِنِ فرنَاس وَأنَا لَستُ بِحَاجَةٍ لِطَائِرٍ بِل لِـ (مُعاون شُوفير)...

(استودعناكم)..

***

ذاتَ يوم

أَصَابَتِ الرَّصَاصَةُ خُوذَةَ الرَّأسِ، لَكِنَّهَا لَم تَصِل إليه. كَانَ الصَّوتُ الَّذِي أَحدَثَهُ اصطدامُهَا بالمَعدنِ مُرعِبَاً.

. أمَامَ المَوتِ كُلُّنَا جُبَنَاءٌ حَتَّى لَو نَجَحنَا فِي ادِّعَاء عَكس ذَلِك. قَالَ لِنَفسِهِ وَهُو يَتَكوَّرُ خَلفَ التَّلَّةِ التُّرَابِيَّةِ المُثخَنَةِ بِالأشوَاكِ وَالأعشَابِ اليَابِسَةِ إذ كَانَ عَلَى يَقِينٍ أنَّ الرَّصَاصَةَ الثَّانِيةَ لَن تَكُونَ لَطِيفَةً كَالَّتِي سَبَقَتهَا.

. الحَرب، يَا لَهَا مِن لَعنَة. أشخَاصٌ ذَوُو نُفُوذٍ وَمَالٍ يُخَطِّطُونَ لَهَا، أشخَاصٌ قَلِيلُون. شَرِكَاتُ أسلِحَةٍ تَبِيعُ وَتَربَحُ المِليَارَات، شَرِكَاتٌ عَالَمِيَّة عِملَاقَة. أشخَاصٌ لَا جَاه أو نُفُوذ أو مَال لَديهِم يَخُوضُونَ غِمَارَهَا وَيَمُوتُون، أشخَاصٌ كَثِيرُون .

. فِي النِّهَايةِ، مَن نَحنُ سِوى بَيَادِق فِي أيدِي مَن يَملِكُونَ هَذا الكَوكَب؟ تَدَاعَتِ الأفكَارُ وَهُوَ يُحَاوِلُ الانسِحَابَ إلى البِنَاءِ المُجَاورِ بِتَغطِيَةٍ نَارِيَّةٍ مِن رِفَاقِه.

حِينَ أصبَحَ فِي مَأمَنٍ خَلعَ الخُوذَةَ وَجَلسَ يُبَحلِقُ فيها.

. سَتَبدُو أذكَى لَو نَجَحَت هَذهِ الرَّصَاصَةُ فِي تَوزِيعِ دِمَاغِكَ الفَارِغِ فَوقَ التُّرَاب. قَالَ صَدِيقُهُ وَهُوَ يُهَنِّئُهُ بِالسَّلَامَةِ ثُمَّ قَدَّمَ لَهُ كَأسَاً مِنَ الشَّاي.

تَعَالَت ضَحِكَاتُ الرِّفَاقِ بَينَمَا رَاحَ يَتَخَيَّلُ المَشهَدَ مَع سِيجَارَة. كَانُوا يَتَنَاوَبُونَ عَلَى الجِرَاسَةِ وَكُلَّمَا انتَهت نَوبَةُ أَحَّدِهِم جَاءَ إِليهِ بِوَصفٍ جَديدٍ لِلمَشهَدِ وَكَيفَ سَيبدُو عبقرياً بِدِمَاغٍ مُفَتَّتٍ بَعدَ أن غَامَرَ بِالخُرُوجِ مِنَ المَبنَى لِسَبَبٍ تَافِهٍ دونَ تَغطِيةٍ مِن رِفَاقِه. كَانَ المَبنَى الَّذِي يَتَحَصَّنُونَ فِيهِ مُطِلَّاً عَلَى إحدَى الضَّواحِي التي تُسيطرُ عليها مجموعاتٌ ظلاميةٌ جَنُوبَي البلاد. أَزِفَ المَسَاءُ وَفِي السَمَاءِ تَلبَّدَت غُيُومٌ مُخَضَّبةٌ بِمَا تَبَقَّى مِن دِماءِ النَّهَار. تَحَلَّقُوا جَمَيعَاً حَولَ نَارٍ أوقَدُوهَا فِي عُلبةٍ مَعدِنيَّةٍ كبيرة.

. الرَّصَاصُ وَالرُّؤوسُ قَلَّمَا يَجتَمِعُونَ مَع البَقاءِ عَلَى قيدِ الحَيَاة. قَالَ أَحَّدُهُم سَاخِراً فَجَمِيعُهُم يُحَاوِلُونَ الهُرُوبَ مِن وِاقِعِهِم، يَتَحَايَلُونَ عَلِيهِ بِإطلاقِ الدُّعَابَات.

.قَد تَكُونُ السُّخرِيةُ مِن أمضَى الأسلِحَةِ فِي وجهِ المَوت.

قالَ لِنفسِهِ حينَ فاجأتهُ اليدُ الَّتِي حَطَّت عَلى كَتِفِه. كانَ قائدُ المَجمُوعةِ المُنتَمِيَةِ لأَحَّدِ ألويةِ الجَيشِ السُّورِي مَارِدَاً بِصَلعَةٍ سَمرَاء وَجَسَدٍ رِيَاضِيٍّ مُتَّسِق. حَدِيثٌ قَصَيرٌ دَارَ بَينَهُمَا فَهِمَ مِنهُ أنَّ تَعرُّضَ المَرءِ لِرَصَاصَةٍ فِي الرَّأسِ حَدَثٌ عَادِي مَا مِن دَاعٍ لِلتَّفكِيرِ فيهِ طَويلاً لأنَّ مَهَامَّاً حَربيَّةً جَدِيدَةً سَيَخُوضُهَا الرِّجَالُ وَالرَّصَاصَةُ الَّتِي أخطَأتكَ اليوم قد لا تفعلُ غَدَاً. شَكَرَ قَائِدَهُ عَلَى المَعلُومَاتِ المُفِيدةِ ثُمَّ غَرِقَا فِي نَوبَةٍ مِنَ الضَّحِك. بَعدَ أن غَادَرَ المَارِدُ أشعَلَ سِيجَارَةً بِقطعَةِ خَشَبٍ تَحتَرِقُ وَبينَمَا كَانَت ظِلالُ اللَّهَبُ تَتَراقَصُ فوقَ وَجهِهِ عادَ إلى التَّفكيرِ، ليسَ بالرَّصَاصَةِ الَّتِي كادَت تَقتلهُ بَل بِزوجَتِهِ وَطِفلَتِيهِ اللَّلاتِي يَنتَظِرنَ عَودَتَهُ مِنَ الحَربِ، ذَاتَ يَوم.

***

الشاهد

انتَابَتنِي سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ حِينَ اقتَرَبَ مِنِّي شَابَانِ وَسِيمَانِ ثُمَّ قَالَ أَحدُهُمَا بِحَيَاء:

.مِن بَعدِ أَمرِكَ، أُرِيدُ تَوقِيعَك؟

كُنتُ وَمَا زِلتُ أَعتَقِدُ أنَّ وُصُولِي إِلَى هَذهِ المَرحَلَةِ كَكَاتِبٍ يَحتَاجُ مَزِيداً مِنَ الوَقتِ وَالخِبرَة.

هَنَالِكَ أدَبَاءٌ عَاشُوا وَمَاتُوا دُونَ أن يَذكرَهَم أو يَطلبَ تَوقِيعَهُم أحد.

هَا أنَا ذَا عَلَى الرَّغمِ مِنَ العَقَبَاتِ الطَّائِفِيَّةِ وَالمِهَنِيَّةِ وَالاجتِمَاعِيَّةِ وَالمَادِّيَّةِ وَالنَّفسِيَّةِ وَالصِّحِّيَّةِ وَصَلتُ بِحكاياتي إِلَى النَّاسِ وَأصبَحُوا يَطلبُونَ تَوقِيعِي.

قُلتُ لِنَفسِي:

.مَا دُمتُ أكتُبُ وَاضِعاً فِي اعتِبَارِي احتِرَامَ عَقلِ القَارِئِ فَلَا شَكَّ سَأصِل.

كُنتُ مَارّاً بِالقُربِ مِن حَدِيقَةِ المَدِينَةِ العَامَّةِ فِي طَرِيقِ عَودَتِي إِلَى المَنزِلِ، أَشعَلتُ سِيجَارَةً وَابتَسَمتُ لِلشَّابَّينِ ابتِسَامَةً لَطِيفَةً ثُمَّ أخرَجتُ القَلَمَ مِن جَيبِ قَمِيصِي وَقُلت:

. أَتُرِيدُ تَوقِيعِي عَلَى وَرَقَةٍ أَم لَعَلَّكَ مِمَّن اقتَنُوا دِيوَانِيَ (أوراق نساء) وَتُرِيدُنِي أن أُوَقّعَ لكَ عَلِيه؟

مَرَّت قُربَنَا بَاقَةُ فَتَيَاتٍ جَمِيلَاتٍ رُحنَ يَتَهَامَسنَ فِيمَا بَينَهِنَّ وَيَبتَسِمنَ مِمَّا أضفَى عَلَى الجَوِّ بِأَسرِهِ سَعَادَةً مُضَاعَفَة.

. عَلَى الأَرجَحِ خَمَّنَتِ الفَتَيَاتُ تَفَاصِيلَ المَوقِفِ، وَمَن يَدرِي! رُبَّمَا كُنَّ رَاغِبَاتٍ فِي الحُصُولِ عَلَى تَوقِيعِي (الآخرَ) لَكِنَّ الحَيَاءَ مَنَعَهُنَّ.

بَادَلتُهُنَّ الابتِسَامَ بِابتِسَامٍ وَعِندَمَا التَفَتُّ إِلَى الشَّابَّينِ رَأيتُهُمَا يَتَهَامَسَانِ بكَلَامٍ لَم أفهَم مِنهُ شَيئاً.

سَعَلتُ لِأحظَى بِانتِبَاهِهِمَا فَاقتَرَبَا أكثَرَ وَقَالَ نَفسُ الشَّاب:

. عَفوَاً أستاذ، لَكِن، أنَا فَقَدتُ قَبلَ قَلِيلٍ بِطَاقَتِي الشَّخصِيَّة، هَذا صَدِيقِي سَيشهَدُ فِي مَخفَرِ الشَّرطَةِ أنَّهُ كَانَ بِصُحبَتِي حِينَهَا وَأرِيدُ مِنكَ أن تَذهَبَ مَعِي لِأنَّ الإجرَاءَاتِ تَتَطَلَّبُ تَوقِيعَ شَاهِدَين.

لَطَالَمَا شَعَرتُ بِصِلَةِ قَرَابَةٍ بِينِي وَبَينَ شخصية سَرحَان عَبد البَصِير فِي المَسرَحِيَّةِ الخَالِدَة (شَاهِد مَا شَفشِ حَاجَة) .

لَم أَعثُر علَى طَرِيقَةٍ تُخرجنِي مِنَ المَوقِفِ المُحرِجِ الَّذِي وَضَعتُ نَفسِي فِيهِ فَهَرَشتُ شَعرَ رَأسِي وقُلت:

.وَلِم لَا يَا صَدِيقِي.. سَأوقّعُ لك، النَّاسُ لِبَعضِهَا.

***

الحَاكُورَة

لَم تَكُن عَلَاقَتِي بِجَدِّي مُمَيَّزَةً، أنَا ابنُ ابنَتِهِ وَلَدِيهِ كَتِيبَةٌ مِن أَولَادِ أَبنَائِهِ الذُّكُور.

كَانَتِ (الحَاكُورَةُ) الَّتِي يَمتَلِكُهَا وَيُتَاخِمُهَا المَنزِلُ الكَبِيرُ مَلِيئَةً بَأشجَارِ المُشمُشِ وَاللَّيمُونِ وَالإيكِدِينَا وَالتِّينِ وَالصَّمغِ وَالتُّوتِ وَالزَّيتُونِ وَطُورِ سِنين.

فِي الشَّمَالِ الغَربِيِّ مِنهَا غُرفَةٌ صَغِيرَةٌ تَضُمُّ (نُولاً) كَانَ جَدِّي يَصنَعُ بِهِ البُسطَ مُستَخدِمَاً خِيطَانَ الصُّوفِ الَّتِي يُدخِلُهَا أُفُقِيَّاً بَينَ مَجمُوعةٍ مِنَ الأَوتَارِ ثُمَّ يُحَرِّكُهَا بِقَدَمِهِ بِوَاسِطَةِ دَعَامَةٍ خَشَبِيَّةٍ لِيُنتِجَ فِي النِّهَايَةِ تُحفَةً جَمِيلَةً لِلَيَالِي الشِّتَاءِ البَارِدَة .

لَطَالَمَا ذَهَبنَا إِلَى هُناكَ أَخِي وَأنَا بَعدَ الانصِرَافِ مِنَ المَدرَسةِ كي نَلعَب.

أَحيَانَاً نَتَسَلَّقُ شَجَرَةَ التُّوتِ الكَبِيرَةَ مُلتَهِمِينَ الثِّمَارَ الخَمرِيَّةَ ذَاتِ المَذَاقِ اللَّذِيذِ، وَأحيَانَاً نَقطُفُ الإيكِيدِينَا العَسَلِيّةَ الطَّعمِ وَأحيَاناً نَكتَفِي بِمُحَاوَلَاتٍ فَاشِلةٍ لَصِيدِ العَصَافِيرِ بِاستِخدَامِ أعوَادِ المَطَّاط.

حِينَ نَتعَبُ نَجلِسُ خَارِجَ الغُرفَةِ الصَّغِيرَةِ نُرَاقِبُ أبَا حَسَن يَعمَلُ وَيقرَأُ لِنَفسِهِ الشِّعرَ الغَزِيرَ الَّذِي حَفِظَهُ طوَالَ السِّنِينِ فَقَد كانَ دُونَ أيّ مُبَالَغَةٍ حَافِظَاً لِمِئَاتِ الأَبيَاتِ كما كَانَ يَقرضُ الشِّعر.

تَزَوَّجَ مَرَّتِين، ماتَتِ الأولى بَعدَ أن أَنجَبَت لَهُ أربَعَةَ ذُكُورٍ وَابنَتِين، أمَّا الثَّانِيةُ فَمَاتَت بَعدَ أن أنجَبَت لَهُ أربَعَةَ ذُكُورٍ وَابنَتِين.

.أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيلَى، أُقَبِّلُ ذَا الجِدَارَ وَذَا الجِدَارَا

وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفنَ قَلبِي، وَلَكِن حُبُّ مَن سَكَنَ الدِّيَارَا....

يَقُولُ أبُو حَسَن مَن أشعَارِ المَجنُونِ غَيرَ مُنتَبهٍ لِوجُودِنَا.

الرَّادِيُو القَدِيمُ الَّذِي كَانَ مُعَلَّقاً عَلَى جِدَارِ الغُرفَةِ التُّرَابِيَّةِ بِقِشَاطٍ جِلدِيٍّ شِبهِ مُهتَرِئٍ يَبُثُّ دَائِمَاً على أثِير إذاعةِ دِمَشق.

.هُنَا دِمَشق، مُوجَزُ الأنبَاءِ يَقرَأهُ عَلَى مَسَامِعِكُم....

وَبَعدَ أن يَفرَغَ المُذِيعُ مِن قِرَاءَةِ المُوجَزِ يقولُ إثرَ فاصلٍ موسيقِيٍّ قَصِير:

.نَترُكُكُم أيُّهَا السَّادةُ مَع بَاقةٍ مُختارةٍ مِن أغَانِي الفَنَّان نَاظِم الغَزالِي..

يَكُفُّ جَدِّي عَن قِراءَةِ الشِّعرِ لِنفسهِ وَيُصغِي بينَمَا لا تَتَوَقَّفُ يَداهُ وقدمَاهُ عَنِ العَمل .

يَنَهرُنِي أخِي كَي نَعُودَ إلَى البَيتِ فَأقُول:

.اسبِقنِي، سَألحَقُ بِك.

السَّمَاءُ زَرقَاءٌ كَبَحرٍ مَطلِعَ تَمُّوز.

أسرَابُ الدُّورِي تَطِيرُ وَتَحُطُّ كَأنَّمَا تَلعَبُ وَفِي الجَوِّ يَعبَقُ عِطرٌ مِنَ الصَّعبِ استِنشَاقُهُ بِكَلِمَاتٍ فَقَد كَانَ خَلِيطَاً عَجِيبَاً مِن شَذَى زَهرِ المُشمُشِ وَاللَّيمُونِ وَأَعشَابِ الأَرضِ الَّتِي تَروِيهَا مِيَاهُ البِئرِ المُتَاخِمِ لِلتِّينَةِ الكَبِيرَة.

أبقَى جَالِسَاً، أُرَاقِبُهُ كَيفَ يَصنَعُ مِن وحدَتِهِ عَالَمَاً قَائِمَاً بِحدِّ ذَاتِه.

يَقولُ نَاظمٌ فِيمَا يَقُول:

.وَعَلَى قَوَامِكَ مِن نُحُولِي مِسحَةٌ، لَكنَّهَا فِي خَصرِكَ المَهزُولِ

أشكُو إِلَى عَينِيكَ مِن سَقَمِي بِهَا، شَكوَى عَلِيلٍ فِي الهَوى لِعَلِيلِ.....

أترُكُ جَدِّي دُونَ أَن يَعلَمَ أنَّنِي كُنتُ قُربَهُ ثُمَّ أعُودُ إِلَى المَنزِلِ لِأُتمِمَ وَاجِبَاتِي المَدرَسِيَّة.

عِندَمَا دَخَلتُ المُرَاهَقَةَ بَاكِرَاً كَانَت تِلكَ الحَاكُورَةُ مَلعَباً لِلعَدِيدِ مِن مُغَامرَاتِي الآفِلَة.

ذاتَ مَرَّةٍ فَاجَأنِي جَدِّي بَعدَ أن كُنتُ مُطمَئِنَّاً لِمُغَادَرَتِهِ الغُرفَة.

اختَلَيتُ بِصَدِيقَتِي وَبَدأتُ البَحثَ عَنِ الذَّهَبِ بَينَ نَهدِيهَا وَفَخذَيهَا كَأَيِّ مُستَكشِفٍ يُهِرُهُ البَرِيق.

فَجأَةً، فُتِحَ البَابُ وَوَقَفَ العَجُوزُ عِندَ العَتَبةِ، رَاحَ يُرَاقِبُنَا وَنَحنُ نَستُرُ عُرِينَا ثُمَّ قالَ بِمَكر:

. ألَم تَجِد فِي مَدرسَتِكَ كُلِّهَا مَكَانَاً تُعطِي الدُّرُوسَ فيه لِصَاحِبتكَ إلّا غُرفَتِي يا حيوان؟

أغلَقَ العَجُوزُ البابَ وغادرَ دونَ أن تُبارِحَ تِلكَ الابتِسامَة وَجهَه.

لَم أعُد أذكرُ مَتَى مَاتَ، أبَعدَ تِلكَ الوَاقِعَةِ بِعَامٍ أو أكثَر.

نَظَمْتُ لَهُ بَيتِينِ مِنَ الشِّعرِ نَقَشُوهُمَا عَلى رُخَامِ قَبرِهِ فِي بِسنَادَا القَدِيمَة :

.مَا زِلتَ تَكتُبُ لِلأَموَاتِ أَشعَارَا، حَتَّى رَحَلتَ وَبَاتَ الشِّعرُ مُحتَارَا

هِيَ الحَيَاةُ تُبَكِّينَا وتُضحِكُنَا، وَفِي ثَوَانٍ يَصِيرُ العُمرُ تَذكَارَا

***

القُبطان

تَقَدَّمتُ بِطَلَبِ وَظِيفَةٍ لِصَالِحِ شَرِكَةٍ بَحرِيَّةٍ مَعرُوفَةٍ تَعمَلُ تَحتَ رايَتِهَا سَبعُ عَشَرَة سَفِينَةٍ تِجَارِيَّةٍ فَحَدَّدُوا لِي مُقَابَلَةً مَع قُبطَانِ إِحدَاهَا.

تَوَجَّهتُ فِي المُوعِدِ المُقرَّرِ إِلَى الرَّصِيفِ البَحرِيّ حَيثُ كَانَتِ السَّفِينَةُ رَاسِيَةً وَسَأَلتُ عَن القُبطَانِ فَأرشَدُونِي إِلَى قُمرَتِهِ.

كَانَ رَجُلاً فَارِعَ الطُّولِ فِي الخَمسِين مِن عُمرِهِ، أَنِيقَ المَلابِسِ، حَلِيقَ الذَّقنِ يَشِعُّ مِن عَينَيهِ الزَّرقَاوَينِ بَرِيقٌ لَافِتٌ وَتَفُوحُ مِنهُ رَائِحَةٌ زَكِيَّة.

سَأَلَنِي عَن خِبرَتِي فِي الإِبحَارِ فَكُنتُ صَرِيحَاً:

.نَظَرِيًّا، خِبرَتِي رَائِعَةٌ فَقَد أَبحَرتُ مَع مِينَة وَمِلفِيل وَستِيفِنسُون آلَافَ الأَمِيَالِ فِي لجَّاتِ الكُتُبِ أمَّا عَمَلِيَّاً يا حَبِيب فَأبعَدُ مَسَافَةٍ اجتَزتُهَا دَاخِلَ البَحرِ كانَت عَلَى مَتنِ قَارِبٍ صَغِيرٍ بِمجذَافٍ وَاحِد.

ضَحِكَ القُبطَانُ، وَضَحِكَ أكثَرَ عِندَمَا عَلِمَ أَنَّنِي حَاصِلٌ عَلَى إِجَازَةٍ فِي الصَّحَافَةِ مِن جامِعَةِ دِمَشقَ وَأعمَلُ فِي هَذا المَجَالِ مُنذ عَقدٍ وَنِيّف.

. أَلَا تَجِدُ الأَمرَ غَرِيبَاً بَعضَ الشَّيء؟ لَدَيكَ عَمَلُكَ الَّذِي تُتقنهُ وَحَيَاتكَ الَّتِي بَنَيتَهَا خِلالَ تلك السَّنَوَاتِ وَالآنَ تُرِيدُ الإِبحَارَ بَعِيدَاً عَن كُلِّ ذَلك؟

.رُبَّمَا، أجبتُ وَأنَا أُقدِّمُ لهُ سِيجَارَةً أشعَلتُهَا ثُمَّ أشعَلتُ وَاحِدةً لِنَفسِي وَأَضَفت:

. مُنذُ ثَلاثِينَ عَاماً أيُّهَا القُبطَانُ أَعِيشُ عَلَى اليَابِسَةِ ولَا أُخفِيكَ، الوَضعُ مُرهِقٌ جِدَّاً. النَّاسُ يَتَكَاثَرُونَ كَالفَيرُوسَاتِ، الأحقَادُ تَملأُ الدُّنيا، حُرُوبٌ لَا تَنتَهِي وَلُصُوصٌ كُلَّمَا مَاتَ أَبرِيَاءٌ زَادَت أرصِدتُهُم فِي المَصَارِف. أَلم تَسمَع بِرِجَال الدِّينِ الذَّينَ يَبِيعُونَ الرُّعَاعَ قُصُوراً فِي السَّمَاءِ كَي يُفَجِّرُوا أنفُسَهُم بَينَ البَشَر؟ أَوَمَا شَاهدَّتَ العَاهِرَاتَ اللَّواتِي يُقَدِّمُونَهُنَّ لَنَا على أَنَّهُنَّ فَنَّانَات؟ أيُّهَا القُبطَان، أَمَا عَلِمتَ بِالقَوَّادِينَ الَّذينَ أصبحُوا رِجالَ أعمَال؟ عَقلِي لَم يَعُد يُسعِفُنِي يَا صَدِيقِي فَقُلتُ لِنَفسِي لِم لَا أُجَرِّبُ البَحرَ وَالعَيشَ عَلَى سَطحِ بَاخِرَةٍ عَلَّنِي أُنقِذُ نَفسِي مِن هَذا الجَحِيم؟

أصغَى القُبطَانُ بِانتِبَاهٍ لِكُلِّ مَا قُلتُهُ وَفِي نِهَايَةِ المُقَابَلَةِ انشَغَلَ لِدَقَائِق قَلِيلَةٍ بِالكِتَابَةِ عَلَى قُصَاصَةٍ وَرَقِيَّةٍ وَضَعَهَا فِي جَيبِ مِعطَفِي بَعدَ أن صَافَحَنِي مُوَدِّعَاً.

اعتَرَتنِي لَهفَةٌ كَبِيرَةٌ وَأَنَا أُخَمِّنُ؛ أَتَكُونُ تَوصِيَةً مِنهُ بِقُبُولِي كَي أُسَلِّمَهَا لِأصحَابِ الشَّرِكَة؟

عَلَيَّ أن أُجَهِّزَ نَفسِي مُنذُ الآن.

رُحتُ أُفَكِّر:

.سَأقَدِّمُ استِقَالَتِي وَأحزِمُ أمتِعَتِي لألتَحِقَ بِطَاقَمِ البَاخِرةِ قُبَيلَ الإبحَار.

دَسَستُ يَدِي فِي جِيبِي مَا أَن ابتَعَدتُ قَلِيلاً عن الرصيف البحري وَأخرَجتُ القُصَاصَة.

قَرَأتُ فِيهَا اسمَ طبيبٍ نَفسيٍّ وَرَقَمَ هَاتفهِ مَع مُلاحَظةٍ مِنَ القُبطَانِ تَقول:

.أُمنِياتِي بِالشِّفَاءِ العَاجِل.

الوَطن

مُنذُ زَمَنٍ لَيسَ بِالبَعِيدِ جِدَّاً، قَبلَ الحَربِ السُّورِيَّةِ اللَّعِينَةِ بِسَنَوَات، فَقَدتُ الإِحسَاسَ بِالمُواطَنَةِ، تَقرِيبَاً.

لَا أذكُرُ عَلَى وَجهِ الدِّقَّةِ مَتَى بَدَأ ذلَكَ الشُّعُورُ لَكِنَّهُ تَبَلوَرَ بِشَكلٍ صَارِخٍ بَعدَ تَخَرُّجِي مِنَ الجَّامِعَة.

كُنتُ أنظُرُ إِلَى المُستَقبَلِ، وَلَا أرَى شَيئَاً.

.هِيَ مَشَاكِلُ البَصَرِ المُبَكِّرَةِ إِذَاً.

قُلتُ لِنَفسِي ثُمَّ ابتَعتُ نَظَّارَةً طِبِّيَّة.

وَقَفتُ فِي يَومٍ مُشمِسٍ عَلَى سَطحِ مَنزِلِنَا فِي اللَّاذِقِيَّةِ وَرُحتُ أُرَاقِبُ لَكِن، لَا شَيء.

بَدَأتُ أُفَكِّر:

.هَذَا المُستَقبَلُ اللَّعِينُ بَعيدٌ جِدَّاً، لَا بُدَّ أن أتَصَرَّف.

طَلَبتُ مِن وَالِدِي نُقُودَاً كَي أشتَرِي مِنظَارَاً كَبِيرَاً.

كَانَ أبِي جَالِسَاً فِي ظِلِّ شَجرةِ الزَّيتُونِ وَلَا يَفعَلُ شَيئَاً سِوَى تَحضِيرِ دُرُوسِ الجُغرَافِيَا لِطُلَّابِهِ.

حِينَ سَمِعَ مَا أُرِيدُهُ رَازَنِي بِعِينِيهِ مِن فَوقٍ إلَى تَحتٍ ثُمَّ قَال:

.اجلِس يَا وَلَدِي.

فَاجَأتنِي لَبَاقَتُهُ فَجَلَستُ وَأشعَلتُ سِيجَارَةً مُتَّخِذَاً وَضعِيَّةَ المُصغِي.

قَال:

.حَبِيبِي، أَلَم أصرِف عَلَيكَ النُّقودَ حَتَّى أَنهَيتَ تَعلِيمَك؟

عَبَبتُ مِنَ السِّيجَارةِ بِغصّةٍ وَأجَبت:

.بَلَى، صَرَفت.

فَمَا كَانَ مِنهُ إلَّا أَن فَنجَرَ عَينِيهِ وَصاحَ:

.مَا الَّذِي تَفعَلهُ قُربِي إذَاً أيُّهَا الأبلَه؟ اغرُب عَن وَجهِي.

طَلَبتُ مِنهُ أن يَبِيعَ قِطعَةً مِنَ الأرضِ الَّتِي يَملكُهَا لَكِنَّهُ بَصَقَ ثُمَّ عَادَ إلَى تَحضِيرِ دُرُوسِ الجُغرَافِيا المَقِيتَة.

شَتَمتُ أُمَّهُ فِي سِرِّي وَذَهَبتُ إلَى أُمِّي الَّتِي أَعطَتنِي بَعضَ النُّقُود.

هَكَذَا، اشتَرَيتُ مِنظَاراً أكبرَ وَرَجِعتُ إلَى مُرَاقَبةِ المُستَقبَلِ لَكِن عَبَثَاً، أدرَكتُ أنَّ الأوَانَ آنَ لِيَكُونَ التَّدَخُّلُ حَاسِمَاً.

استَعَرتُ مِن وِكَالَةِ نَاسَا الفَضَائِيَّةِ تِلِسكُوبَ (هَابِل) وَرُحتُ أُرَاقِب.

فِيمَا مَضَى، استَطَاعَ (هَابِل) أن يَرصدَ النُّجُومَ القَابِعَةَ عَلَى بُعدِ مَلايِينِ السِّنِين الضَّوئِيَّة.

مَجرَّاتٌ، ثُقوبٌ سَودَاءٌ، مُستَعِرَاتٌ عُظمَى، سُحبُ الخَلقِ، كُلُّهَا استَطَاعَ هَابِل رُؤيَتَهَا لَكِنَّهُ وَقَفَ عَاجِزاً عَن رُؤيَةِ أيّ أثَرٍ لِمُستَقبَلِي فِي سُوريا (الصّمُود والتَّصدّي).

لَا مَالٌ، لَا جاهٌ، لَا عَمَلٌ، لَا فُرصَةٌ لِلعَمَل.

تَخَيَّل حَجمَ المَأسَاةِ عَزِيزِي، الشَّيءُ الَّذِي أكرَهُ القِيَامَ بِهِ حَدَّ الجُنُونِ وَهُوَ العَمَل، مَا مِن فُرصَةٍ عَادِلَةٍ فِي الوَطَن كَي أُمَارِسَهُ بِكَرَامَةٍ لأَكسَبَ عَيشِي.

حِينَ أخبَرتُ صَدِيقِي نَبهَانَ عَمَّا جَرَى قَال:

. مِن أينَ سَتَأتِي الفُرصَةُ وَالمَحسُوبِيَّاتُ والفسادُ وَبَعثُنَا (العَظِيم) بِمَجدِهِ الفَظِيعِ يَتَحَكَّمُونَ بِكلِّ شَيء.

إذَا نَظَرتَ كَشَابٍّ إلَى مُستَقبَلِكَ فِي وَطَنِكَ وَلَم تَرَ بارِقةَ أَمَلٍ، يَضعُفُ الانتِمَاءُ قَولاً وَاحِداً لِذا دَعكَ مِن مَهَازِلِ الإعلَامِ وَالتَّطبِيلِ وَالتَّزمِيرِ لأن الجُيُوشَ تَزحَفُ عَلى بُطُونِها.

. سَافِر يَا حَبِيبِي، سَافِر.

أَضَافَ نَبهَان وَهُوَ يَسحَبُ مِن نَرجِيلَتِهِ نَفَساً عَمِيقاً ثُمَّ نَفَثَ فِي الفَضَاءِ مَتَاهَةً مِن دُخَان .

وَهَذَا مَا كَان.

. الوَطَنُ الَّذِي لَا يَسمَحُ لَكَ أن تَعيشَ فِيهِ بِكَرَامَةٍ ارحَل عَنهُ إن كَانَ بِمقدُورِكَ حَتَّى يَقضِي اللهُ أمراً كانَ مَفعُولا.

قُلتُ لِنفسِي وَأنَا أصعَدُ سَلالِمَ الطَّائِرة قَبلَ عَقدٍ ونَيِّف فالإنسَانُ بِلا كَرَامَةٍ، جُثّةٌ تَتَعَذّب.

الجَنَازَة

كَانَت جَنَازَةً عَادِيَّةً لِجُندِيٍّ سُورِيٍّ حَضَرَهَا أهلُ قَريَتِهِ مِن ذَوِي الدَّخلِ المَحدُودِ وَبَعضُ الرِّفَاقِ الحزبيين مِن ذَوي الدَّخلِ غيرِ المَحدُود.

كَفَّنُوا الشَّهِيدَ بِعَلمِ البِلَادِ المُختَلفِ عَلِيهِ بَينَ أطرَافِ الحَربِ العَاصِفَةِ بِالبِلادِ ثُمَّ تَوَلَّى بَعضُهُم مَهَمَّةَ إنزَالِ الجُثَّةِ إلَى القَبر.

كَانِتِ السَّمَاءُ خَالِيَةً مِن أيِّ أَثَرٍ لِلغَمَامِ وَفَوقَ أغصَانِ الأَشجَارِ رَاحَت جَوقَةٌ مِنَ العَصَافيرِ تَعزفُ لَحناً لَيسَ جَنَائِزِيَّاً.

.الطَّبِيعَةُ لَا تَهتَمُّ كَثِيرَاً بِمزَاجِ البَشَر.

قَالَ كَهلٌ لِلشَخصِ الوَاقِفِ إلَى جِوَارِهِ لَكِنَّ العِبَارَةَ لَم تَترك فِي نِفسِهِ أيَّ أثَر.

. مَتَى سَيَكُفُّ هَؤلاءِ الحَمقَى عَن اعتِبَارِ أَنفُسِهِم حُكَمَاء لِمُجَرَّدِ أَنَّهُم تَقَدَّمُوا فِي العُمر؟

قَالَ الشَّخصُ لِصَدِيقِهِ بَقَرَف.

نَظَرَ الرِّفَاقُ الحِزبِيُّونَ إلَى سَاعَاتِهِم تِبَاعَاً دَاعِينَ رَبَّهُم أن تَنقَضِي المَرَاسِمُ بِسُرعَةٍ فَقَد شَعَرُوا بِجُوعٍ شَدِيد.

ظَلَّت أمُّ الجُثَّةِ صَامِتَةً بِعَينينِ فَارِغَتِينِ وَقَد لَفَّهَا الجُنُونُ مِن رَأسِها حَتَى أَخمَصِ رُوحِهَا بَينَمَا تَجَمَّعَت حَولَهَا نُسوةٌ نَاحِبَات.

الشَّيخُ الَّذِي أمَّ الصَّلَاةَ عَلَى رُوحِهِ سَاوَرَهُ الشَّكُّ بَعدَ خَمسِ سَنَوَاتٍ مِنَ القَتلِ وآلَافِ الجَنَائِزِ وَقَبلَ أن يَرفَعَ رَأسَهُ صَوبَ السَّمَاءِ لِيَصرخ:

.مَا كُلَّ هذَا أيُّهَا الـ...

استَغفَرَ رَبَّهُ وَتَابَعَ الصَّلَاة.

كُلُّ شِيءٍ كَانَ عَادِيَّاً.

المَلَامِحُ المُرهَقَةُ لِكَائِنَاتٍ خَائِبَةٍ تَنزِفُ دَمَاً وَأَلَمَاً وَحَيَاة.

أسلَاكُ الكَهرُبَاءِ الَّتِي لَا تُؤذِي أَحَداً، الأزهَارُ الذَّابِلَةُ فَوقَ القُبُورِ المُبَعثَرَةِ هُنَا وَهُنَاك، حَفِيفُ أجنِحَةِ الشَّيَاطِينِ فَوقَ البَلدِ غيرِ الأمِين، لكن..

حِينَ قَفَزَ أبُ الشَّهِيدِ وَأصبَحَ مُمَدَّداً إلِى جِوارِ ابنِهِ في القبرِ ثُمَّ قَالَ بِصَوتٍ مَفجُوعٍ شَقَّ السَّمَاء:

.الآنَ، الآنَ يَا أُخوتِي أَهِيلُوا التُّرَاب.

لَم تَعُد تِلكَ الجَنَازَةُ عَادِيَّةً عَلى الإِطلَاق.

***

المُوهِبَة

بَعدَ انقِضَاءِ اليَومِ الَّذِي كَانَ فيه اللهُ يُوَزِّعُ المَوَاهِبَ عَلَى البَشَر، وَجَدُونِي نَائِمَاً قُربَ الشَّجَرَةِ المُحَرَّمَة.

نَكَزَنِي كَبِيرُ المَلَائِكَةِ بِجَنَاحِهِ فَنَهَضتُ وَتَثَاءَبت.

.مَاذَا تُرِيد؟

سَألتُهُ وَأنَا أُشعِلُ سِيجَارَةً سَمَاوِيَّةً رَائِعَةَ المَذَاق.

. الجَمَيعُ أصبَحَ عَلى الكَوكِبِ اللَّعِينِ فِي تِلكَ المَجَرَّةِ اللعينةِ وَعَليكَ اللّحَاقُ بِهِم، الأَوَامِرُ وَاضِحَةٌ وَصَرِيحَةٌ، لَا بَشَرٌ فِي هَذِهِ الجَنّةِ حَتَّى إشعَارٍ آخَر.

جَاءَنِي الخَبَرُ كَالصَّاعِقَةِ فحَاوَلتُ الفِرارَ لَكِن، إلَى أين؟

حُرَّاسُ هَذَا المَكَانِ مُزَوَّدُونَ بِأجنِحَةٍ نَفَّاثةٍ ، لَم يُكَابِدُوا عَنَاءً فِي إلقَاءِ القَبضَ عَلَيَّ ثُمَّ بِرَكلَةٍ وَاحِدَةٍ وَجَدتُ نَفسِي هُنَا مَعَكُم، فِي الجَحِيم.

التَّواصُلُ مَع الرَّبِّ كَي يُعيدَ النَّظرَ بِقَرَارِهِ كانَ بِلا جَدوى، وَمَع مُرُورِ الأيّامِ والسِّنِينِ لاحَظتُ أمراً غَايَةً فِي الغَرَابَةِ حَيثُ أنَّ كلَّ شَخصٍ هُنَا يَتَمَيَّزُ بِشِيءٍ مَا.

هَذَا الَّذي يَمتلكُ صَوتَاً عَذبَاً يُذِيبُ القُلوبَ، ذَاكَ الَّذِي يَعزفُ عَلى آلَتِهِ المُوسِيقِيَّةِ بِأنَامِلٍ كَأغصَانِ البَان.

هُنَاكَ مَن يَقرَأ رُمُوزَ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالفِيزِياءِ والكِيمِياءِ كَمَا أقرَأ أنَا لَافِتَةَ الشَّارِعِ قَبلَ المُنعَطَفِ عندَ اليمِينِ والمكتُوبُ عَلِيهَا:

.مُنعَطَفٌ عِندَ اليَمِين.

بَعضُهُم لَدِيهِ (الكَارِيزمَا) الآسِرَةِ وَمِنهُم مَن يَعرفُ الأفكَارَ قَبلَ أن يَبُوحَ بِهَا أصحَابُهَا، مِنهُم مَن يَنحتُ الصَّخرَ وَيَقُول:

.انطق يَا حَجَر، فَيَنطق.

هُنَاكَ أشخَاصٌ ذَوو قُدُرَاتٍ خَارِقَةٍ فِي السِّحرِ، وَهُنَاكَ أشخَاصٌ رَائِعونَ فِي الرَّقصِ بِالإضَافِةِ إلَى ذَوِي المُعجِزَات.

.اللَّعنَة، أينَ مَوهِبَتِي يا أبناءَ العاهرة؟

كُنتُ أصرخُ هكذا وذاتَ يومٍ، أحَاطَ بيَ الدُّخَانُ مِن كُلِّ حَدبٍ وَصَوبٍ لينقَشِعَ بَعد دَقائِقٍ وَقَد ظَهرَ كَبِيرُ المَلائِكَةِ مِنَ العَدَمِ وَقَال:

.أتذكُرُ اليومَ الَّذِي رَكَلتُكَ فِيهِ عَلَى مُؤخِّرَتِكَ السَّمِينَةِ لِتَنطَلِقَ بِسُرعَةِ الضَّوءِ إلَى الأَرض؟

.وَهَل يُنسَى ذَلكَ الحدثُ العَظِيم؟

.حِينَهَا، وَقَبلَ أن نَبحَثَ عَنكَ لِنَطرُدَكَ مِنَ الجَنَّةِ، عَقَدَ اللهُ اجتِمَاعَاً مَعِ البَشَرِ وَوَزَّعَ عَلِيهِم مِن كِيسِ المَوَاهِبِ بَعضَ المَوَاهب.

ثُمَّ أضَاف:

.لأنَّكَ كُنتَ تَشخُرُ بِالقُربِ مِنَ الشَّجَرةِ المُحَرَّمَةِ. يا حَبيب. فَاتَكَ الحَدَث.

.يَا سَلَام..

انتَفَضتُ صَائِحَاً:

.وَهَل أعلَمُ بِالغِيبِ لِأتَرَقَّبَ تَوزِيعَ المَوَاهِب؟

كُنتُ سَعِيداً فِي الجَنَّةِ، أكلٌ وَمَرعَى وَقِلَّةُ صَنعَة فَلِمَاذَا تُرِيدُنِي ألَّا أنَامَ سَاعَةَ أشَاء.

ثُمَّ استَدرَكت:

.كَانَ مِنَ الذَّكَاءِ لَو أيقَظتَنِي قَبلَ انتِهَاءِ عَمَلِيَّةِ التَّوزِيعِ وَليسَ بَعدَهَا. يَا حَبيب.

عَلَى الأقَل، تَوَسَّط لِي مَع المُعَلِّمِ الكَبِيرِ كَي يَتَدَارَكَ الأمر، الأوضَاعُ فِي هَذَا الجَحيمِ الَّذِي أرسَلتُمُونِي إلِيهِ مَع مَوهِبَةٍ لا تُطَاق فَمَا بَالكَ دُونَهَا.

صَمَتَ كَبِيرُ المَلائِكَةِ وَكَأنَّهُ شَعَرَ بِفَدَاحَةِ الخَطَأ الَّذِي ارتَكَبُوهُ بِحقِّي ثُمَّ اختَفَى بِلَمحَةٍ كَمَا ظَهرَ وَحِينَ عَادَ قَال:

.لَقَد تَشَاوَرتُ مَع اللهِ بِشَأنِك.

بِلَهفَةٍ سَألت:

.وَبَعد؟

.إنَّهُ يَقُولُ لَك: "لَم أمنحكَ مَوهِبَة ! اصنَع لِنَفسِكَ وَاحِدَة".

استِرَاحَةٌ إلهِيَّةٌ مِنَ الحَربِ فِي تِلكَ البِلَاد

تَوَقَّفَ الأَبُ أمَامَ مَتجَرِ الأَلعَابِ تَلبِيَةً لِرَغبَةِ ابنَتِهِ الشَّقِيَّةِ وَرَاحَ يَستَمِعُ لِطَلَبَاتِهَا الطُّفُولِيَّةِ بِابتِسَامَةٍ كَادَ يَنسَاهَا، شَأنُهُ شَأنُ مُعظَمِ سُكَّانِ هَذِهِ المَدِينَة.

كَانَ يَومَاً مُنَاسِبَاً لِلخُرُوجِ مِنَ البَيتِ فَالشَّمسُ زَارَتهُم بَعدَ أيّامٍ طَوِيلَةٍ مِنَ البَردِ اجتَاحَتِ البِلَادَ كَأنَّ الحَربَ لَم تَكُن كافية.

قَالَ التَّاجِرُ لِلأرمَلة:

.أقسُمُ أنَّ هَذِهِ تَسعِيرَةُ الحُكُومَة، اشتُمِيهَا وَلا تَشتَمِينِي.

الأرمَلَةُ شَتَمَتهُ وَشَتَمتِ الحُكُومَةَ اللَّعِينَة.

هِيَ تَعلَمُ .كَمَا يَعلَمُ مُعظَمُ الفُقَرَاء .أنَّ التَّاجِرَ وَالمَسؤُولَ الحُكُومِي وَجهَانِ لِعُمَلةٍ وَاحِدةٍ هِيَ الاحتِيَال.

فِي المَلعَبِ التُّرَابِيِّ القَرِيبِ تَجَمَّعَ عَدَدٌ مِنَ الطَّلَبَةِ بَعدَ خُرُوجِهِم مِنَ المَدرَسَةِ مُستَغِلِّينَ دِفءَ الشَّمسِ كَي يَلعَبُوا كُرَةَ القَدَم.

لَاحَظَ سَائِقُ السَّيَّارَةِ البَيضَاءِ كَم كَانَ أهلُ المَدِينَةِ سُعَدَاءَ بِهَذَا اليَومِ كَأنَّهُ استِرَاحَةٌ إلَهِيَّةٌ مِنَ الحَرب.

إلَى جِوَارِ مَقهَىً يَعُجُّ بِالزَّبَائِنِ، لَيسَ بَعِيداً عَنِ المَلعَبِ التُّرَابِي رَكَنَ سَيَّارَتَهُ فَاستَطَاعَ أن يَرَى بِوضُوحٍ رَجُلاً يَقِفُ أمَامَ مَتجَرِ الألعَابِ بِرفقَةِ طِفلتِهِ الصَّغيرَة.

قَرَأ السَّائِقُ بَعضَ الآيَاتِ ثُمَّ ألقَى نَظرَةً مُتَفَحِّصَةً عَلى وَجهِهِ فِي مِرآةِ السَّيَّارَةِ وَابتَسَمَ لِأنَّ شَكلَهُ تحوَّلَ بَعدَ إطلَاقِ الّلحيَةِ وَحَفِّ الشَّارِبِينِ إلَى مَا يُشبِهُ مَثَلَهُ الأعلَى.

بِكَبسَةِ زُرٍّ خَفيفَةٍ تَنَاثَرَ جَسَدُهُ إلى ألفِ قُنبلة واحدةٌ قَتلَت الطِّفلَةَ مَع أبِيهَا وأخرى سحقتِ الطُّلَّاب ورُوَّاد المَقهَى، وثالثة قَتَلَت الأرمَلةَ لَكِنَّ التَّاجِرَ نَجَا من الموت.

كُلُّ جُزءٍ مِن ذَلكَ الجَسَدِ المُتَفَجِّر بِاسمِ اللهِ أزهَقَ رُوحَاً كَانَت تَعتَقِدُ قَبلَ قَليلٍ أنَّ اليَومَ الَّذِي زَارَهُمُ الشَّمسُ فِيهِ بَعدَ الصقيعِ هُوَ يَومٌ مُنَاسِبٌ للخُروجِ فِي استِرَاحَةٍ إلَهيةٍ مِنَ حَربٍ طَويلةٍ تَعصفُ بِالبِلاد.. تلكَ البلاد.

***

رَغِيفُ الخُبز

كَانَ حَفلاً بَاذِخَاً ذَاكَ الَّذِي دُعِيتُ إِلِيهِ بِحُكمِ عَمَلِي الصَّحَفِي.

كَالعَادَةِ، وَجَدتُ نَفسِي وَحِيداً وَسطَ نِصفِ أَلفٍ مِن أبنَاءِ الطَّبَقَةِ (المُخمَليَّة)، اولَئِكَ الَّذِينَ يُعَادِلُ ثَمَنُ مَا يَرتَدُونَهُ لِأجلِ هَكَذَا مُنَاسَبَاتٍ مَبلَغَاً كَافِيَاً لِإطعَامِ عِشرِين قَرِيَةٍ مَنكُوبَةٍ، وَرُبَّمَا أَكثَر.

فِي كُلِّ مَرَّةٍ أقُول، هَذهِ آخِرُ مَرَّة، مَا الَّذِي يَجمَعُنِي بِهَؤُلَاء؟ لَكِنَّ الظُّروفَ تُرغِمُنِي عَلَى الحُضُورِ فَالمُؤَسَّسَةُ تُرِيدُ خَبَرَاً وَصِنَاعَةُ الأخبَارِ لِلمُؤسَّسَةِ الَّتِي أعمَلُ فِيهَا مَورِدُ رِزقِي، الوَحِيد.

سَجَّلتُ بَعضَ الانطِبَاعَاتِ وَالآرَاءِ ثُمَّ اتَّخَذتُ مَكَانَاً مُنزَوِيَاً وَجَلستُ إِلَى طَاوِلَةٍ عَلَيهَا مَا عَلَى بَقِيَّةِ الطَّاوِلَاتِ مِن أصنَافِ الطَّعَامِ الَّتِي أجهَلُ أسمَاءَ مُعظَمِهَا. امتَشَقتُ رَغِيفَ خُبزٍ لِأُجهِزَ عَلَى مُحتَوَيَاتِ الصُّحُونِ بِطَرِيقَتِي التَّقلِيدِيَّةِ فَالشَّوكَةُ وَالسِّكِّينُ لَيسَتَا مِن اختِصَاصِي لَكِنَّ ثَلاثَةَ شَبَابٍ وَصَبِيَّتَينِ تَوَقَّفُوا أَمَامَ طَاوِلَتِي وَطَلَبُوا الإِذنَ بِالجلُوس. قُلتُ عَلَى مَضَض :تَفَضَّلُوا..

ثُمَّ تَمتَمتُ:

.لَا كَانَ اللهُ أرسَلَ الغَلَاء .

جَلسَ القَومُ فَكَانَتِ الصَّبِيَّةُ الشَّقرَاءُ عَن يَمِينِي والمُستَشقِرةُ بَينَ أصدِقَائِهَا عَنِ اليَسَار.

اللَّعنَة، كَيفَ سَأمَارِسُ طُقُوسِي البِدَائِية فِي الأكل؟

تَرَكتُ رَغِيفَ الخُبزِ مَن يَدِي ثُمَّ أمسَكتُ الشَّوكَةَ وَالسِّكِّين ولَستُ أعرِفُ لِمَاذَا أشعُرُ حِينَ أمسِكُهُمَا أنَّ خَطَأ مَا يَحدُث!

أمَامَكَ فَخذُ دَجَاجةٍ أو فخذُ امرَأةٍ، كَيفَ تَفتَرِسُهُ؟ أينَ المُتعَةُ فِي التَّرَوِّي وَالمَيَاعَة؟

عَلَى حِينِ غَرّةٍ تَبَسَّمَتِ الشَّقرَاءُ وَسَألَت:

.فِي أيِّ مَجَالٍ تَستَثمِرُ؟

ضَحِكتُ بِأعلَى الصَّوتِ مِمَّا أثَارَ دَهشَتَهَا.

. عَزِيزَتِي، أنَا أستَثمِرُ فِي الكَلِمَاتِ وَلَا عَلاقَةَ لِي مِن قَرِيبٍ أو بَعِيدٍ بِالأعمَال.
قُلتُ وَأنَا أُشعِلُ سِيجَارةً .

.استِثمَارٌ رَائِع.

قَالَت صديقتها ظَنّاً مِنهَا أنَّنِي أقصدُ العَمَلَ فِي دُورِ النَّشرِ وَالمَطَابِعِ لَكِنَّنِي أوضَحتُ لِلسَّيدَتَينِ الجَمِيلَتَينِ المَجَازَ وَحَقِيقَةَ أنَّنِي مُجَرَّدُ صَحَفِيّ وَكَاتِبِ حكاياتٍ غَير مَعرُوف.
فِي كَلَامٍ آخَر.. لَستُ رَجُلَ أعمَال بَل، أوهَام .

حَرِصتُ أن يَكونَ نِصفُ حَدِيثِي بِالعَرَبِيَّةِ الفُصحَى فَأمَامَ ثَرَاءِ هَؤُلَاءِ لَا سِلاحَ مَعِي سِوى العِلم.

لَاحَظتُ فِي نَظرَاتِ الشَّقرَاءِ شَيئَاً مِنَ الإعجَابِ الذَي لَم يَحجِب عَنِّي نَظرَاتِهَا الأخرى مَع بَقيَّةِ المَجمُوعَةِ إلَى مَلابِسِي المُتَوَاضِعَة مما جعلَ الأمرَ يختلطُ علي. مُنذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ أدرَكُتُ خُطُورَةَ الاقتِرَابِ مِنَ الفَتَيَاتِ الثَّرِيَّاتِ فَالنَّتِيجَةُ لَن تَكُونَ لِصَالِحِي..

.المَالُ بِالنِّسبَةِ لِلمَرأةِ كَالمَرأةِ بِالنِّسبَةِ لِلرَجُل.

قُلتُ لِنَفسِي وَتَرَاجَعتُ خَلفَ حُدودِي قَلِيلَاً كَمَا نَصَحَنِي عَجُوزٌ حَكِيمٌ التَقيتُ بِهِ ذَاتَ يَومٍ عَلَى شَاطِئِ البَدرُوسِيَّةِ. فَجَأة.. أخرَجتِ الصَّبِيَّةُ مِن حَقِيبَتِهَا الأُرجُوَانِيَّةِ دَفتَرَاً صَغِيرَاً وَقَلمَاً ثُمَّ طَلَبَت أن أكتُبَ لَهَا شَيئَاً مُوقَّعَاً بِاسمِي.

كَانَ الشَّبَابُ الثَّلاثَةُ يَتَهَامَسُونَ وَيرمُونَ فِيمَا بَينهم ابتِسَامَاتٍ تَمِيلُ إلَى السُّخرِيَّة.

.أنَا أبصمُ فَقَط. قلتُ بِبرُود.

فَتَحُوا أفوَاهَهُم بِاستِغرَابٍ فَضَحِكتُ وأخبَرتُهُم أَنَّنِي أمزحُ وَلَن أُوَقِّعَ لَهَا عَلى وَرقَةٍ فَقط بَل بِإمكَانِي وَضعُ إمضَائِي عَلَى نَهدِهَا أو مُؤخِّرَتِهَا كَمَا يَفعلُ نُجُومُ (الرُّوك آند رول).

تَحَوَّلَتِ ابتِسَامَاتُ السُّخرِيَةِ إلَى غَصَّاتٍ ثُمَّ انسَحبوا بِسُرعَةٍ لم أتوقَّعهَا فَألقَيتُ نَظرةً مُتَأمِّلَةً فَوقِ الطَّاوِلَةِ وَاستَنشَقتُ بِلذّةٍ عَبيرَ الدَّجَاجَةِ ذَاتِ الجِلدِ المُغمَّسِ بِالزَّيتِ وَالثُّوم.

رَمَيتُ الشَّوكَةَ وَالسِّكِّينَ فِي أعقَابِ الضُّيوفِ الآفِلِين وامتَشَقتُ رَغِيفَ الخُبزِ مِن جَدِيد.

***

الأحمَق

قَبلَ أَن أَذهَبَ إِلَى الحَربِ كُنتُ أَعتَقِدُ أَنَّ عَدُوّي يَقِفُ فِي الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ الجَبهَةِ فَقَط، كي أُنقِذَ البِلَادَ مَا عَلَيَّ سِوَى إِطلَاق النَّارِ عَلَيهِ، كَم كُنتُ أحمَقَاً.

بَعدَ عَامٍ وَاحِدٍ مِن بِدَايَةِ الحَربِ اللَّعِينَةِ تَطوَّعتُ لِلدِّفَاعِ عَنِ الوَطنِ الغَالِي وَالعَزِيز فَأعطُونِي بُندُقِيَّةً ثُمَّ أَخضَعُونَا . نحنُ المُتَطَوِعِينَ الجُدُد . لِدَورَةٍ تَدرِيبِيَّةٍ لَم تَتَجَاوَزِ الخَمسَةَ وَأربَعِين يَومَاً أرسَلُونَا فِي أعقَابِهَا إِلَى منطقةٍ مُشتَعِلَة بالرصاص والقذائف.

قَالَ أَحَّدُ الضُّبَّاطِ يَومَهَا:

. أنتُم سِيَاجُ البِلادِ، أنتُم حُمَاةُ الدِّيَارِ، أنتُم السَّندُ الوَحِيدُ لِلأُمَّةِ العَربِيَّةِ الوَاحِدَةِ ذاتِ الرِّسَالَةِ الخَالِدَةِ وَأنتُم الشُّعلَةُ المُضِيئَةُ فِي لَيَالِينَا الحَالِكَة.
قَالَ آخَر:

. أنتُم رِجَالُ اللهِ، أنتُم العُنفُوانُ، أنتُم السَّادَة والقَادَة، ثُمَّ قَدَّمُوا لِكُلِّ قَائِدٍ حَبَّتِي بَطَاطَا وَطَمَاطِمٍ وَقَالُوا كُلُوا.

لَم أكتَرِث لِلأَمرِ فِي البِدايَة.قُلتُ لِنَفسِي:

. بَطَاطَا، بَطَاطَا، فَليَكُن، مَا عَيبُهَا؟ لَكِن مَع مُرُورِ الأيَّامِ اكتَشَفتُ أنَّهَا وَجبَتُنَا الرَّئِيسِيَّةُ طوالَ خدمَتنَا في هذهِ الحَربِ كَمَا اكتَشَفتُ أنَّ مُعظَمَ مَن نُحَارِبُهم هُم مِنَ أبناءِ الأُمَّةِ العَرَبِيَّةِ الوَاحِدَةِ الَّتِي كَمَا قَالَ الضَّابِطُ، نَحنُ سَندُهَا. لَم يَكُن عَلَينَا مُحَارَبَة الفكر المُتَطِرف وَحَسب، بَل أقذَر مَن أنتَجَهم الفَسَاد. هُم يَركَبُونَ السِّيَّارَاتِ الَّتِي لَا حَصرَ لَها وَيَتَمَلَّكُونَ الأَرَاضِي الَّتِي لَا حُدُودَ لِمَشَارِيعِهَا وَيَرتَادُونَ المَطَاعِمَ وَالفَنَادِقَ البَاهِظَةَ وَنَحنُ عَلِينَا أن نَرضَى بِالبَطَاطَا كَنِعمَةٍ مِنَ اللهِ ثُمَّ يَجِبُ أن نَحمِدَهُ وَنَحمدَهم عَلِيهَا.

فِي وَاحِدةٍ مِنَ الإجَازَاتِ القَلِيلَةِ لَبَّيتُ دَعوَةَ صَدِيقِي إلَى المَقهَى. كَانَ مُزدَحِمَاً كَمَا لَو أنَّنَا فِي عُرس.

قُلتُ لِنَفسِي:

.لَا بَأس.. نَحنُ نُحَارِبُ كَي تَستَمِرَّ الحَيَاة.

بَعدَ سَاعَةٍ مِن جُلُوسِنَا رَكَنَت أمَامَ المَقهَى سَيَّارَةٌ فَخمَةٌ زُجَاجِهَا مَخفِيٌّ بِالكَامِل. تَرَجَّلَ مِنهَا شَابَّانِ يَرتَدِيَانِ الزِّيَّ العَسكَرِيَّ وَلَم يَكُن مِنَ الصَّعبِ مُلاحَظة الهَوَاتفِ والنَّظَّارَاتِ الشَّمسِيَّةِ الثَّمِينةِ الَّتِي يَمتَلِكَانِهَا.

قُلتُ لِصَدِيقِي:

.لَا شَكَّ أنَّ هَذِينِ العَسكَرِيَّينِ قَتَلا آلَافَ الدَّوَاعِشِ حَتَّى كَافَأهمَا الرَّئِيسُ بِالأموَالِ الطَّائِلَة.

ضَحِكَ صَاحِبِي حَتَّى ابتَلَّت لحيَتُهُ ثُمَّ قَال:. لَا عَلاقَةَ لِهَذِينِ بِالجَّيشِ مِن قَرِيبٍ أو بَعِيد..

هَرَشتُ رَأسِي حِيرَةً فَالفَترَةُ الطَّوِيلةُ الَّتِي غبتُهَا عَنِ المَدِينَةِ كَانَت كَفِيلَةً بِتَولِيدِ شُعُورٍ مُرعِبٍ بِالغُربَة..

حِينَ عُدتُ إلَى سَاحَةِ الحَربِ شَعرتُ بِرَاحِةٍ أكبَر فالعدوّ واضحٌ هنا على خلافِ المدينةِ التي يرتدي فيها العدو أكثرَ من سترةٍ عسكرية.

فِي السَّنَةِ الخَامِسةِ مِنَ الحَربِ دَارَت مَعرَكَةٌ صَبَاحِيَّةٌ عَنِيفَةٌ بينَنَا وبينَ الهَمَجِ كَانَ نَصِيبِي مِنهَا خَمس رَصَاصَاتٍ، ثَلاثَةٌ فِي سَاقِي وَفَخذِي وَاثنَتَانِ فِي بَطنِي فَاعتَقَدَ الرِّفَاقُ أنَّنِي سافرتُ بِتَذكِرَةِ ذَهَابٍ دُونَ عَودَةٍ إلَى العَالَمِ الآخَرِ لَكِنَّنِي نَجُوتُ بِإعجُوبَةٍ وأصبحتُ فوقَ كرسي مُتحرك.

بَعدَ انقِضَاءِ مُدَّةِ العِلاجِ وَالنَّقَاهَةِ وَتَسرِيحِي مِنَ الجَيشِ فَكَّرتُ أن أعمَلَ لأكسَبَ لقمَةَ عَيشِي. مَن كَانُوا يُقدِّمُونَ لنَا البَطَاطَا فِي الحَربِ لَن يُقَدِّمُوا لنَا الكَثِيرَ بَعدَ أن نُصبِحَ مُعَاقِين. بِمُسَاعَدَةِ الأصدقَاءِ الطَّيبِين فَتَحتُ (كشكاً) لِبيعِ التَّبغِ وَالقَهوةِ وَبعضِ المَوادِ التِّجَارِيَّةِ الخَفِيفَة. لَا أريدُ أن أكُونَ عَالَةً عَلى أحد.

البَلَدِيَّةُ قامت بإغلاقِ (الكشك) لأنَّنِي لا أملكُ الأورَاقَ والأموَالَ اللَّازِمَة لِلرَّشوَة.

الحَقّ أقولُ لكم:

قَبلَ أن أذهَبَ إلَى الحَربِ كُنتُ أعتَقِدُ أنَّ عَدوِّي يَقِفُ فِي الطَّرفِ الآخَرِ مِنَ الجَبهَة، كِي أنقذَّ البِلادَ مَا عَليَّ سِوى أن أطلِقَ النَّارَ عَليه.

كَم كنتُ أحمَق.

***

عِطرُهَا المَمزُوجُ بِالعَرَق

بِالنِّسبَةِ لِلبَعضِ، الشَّجَرَةُ مَصدَرٌ لِلأوكسِجِين، كَمَا تَعلَمُون، التَّركِيبُ الضَّوئِي وَهَذهِ الأمُور.

بِالنِّسبَةِ لِلبعَضِ الآخَر، الشَّجَرَةُ مَصدَرٌ لِلغِذَاء، تُفَّاحٌ، زَيتُونٌ، تِينٌ، وَمَا إلَى هُنَالِك..

بِالنِّسبَةِ لِلمُسَافِرِ فِي الصَّحرَاء، الشَّجَرَةُ مَصدَرٌ لِلفيء، لِلنَّجَّارِ مَصدَرٌ لِلخَشَب، لِصَاحِبِ المَطبَعَةِ مَصدَرٌ لِلوَرق، وبِالنِّسبَةِ لِشَّابٍ فَقِيرٍ فِي القَريَةِ لَا مَكَانَ يَصحَبُ إلِيهِ حَبِيبَتَهُ، الشَّجَرةُ جَنَّة.

غُرفَةٌ وَاحِدةٌ مَكَانٌ مُزدَحِمٌ لِسبَعَةِ أشخَاصٍ مِن المُستَحِيلِ أن تَجِدَهَا مُهَيَّأَةً كي تَستَقبِلَ فِيهَا صَاحِبَتَكَ لَهَذَا كَانَ مِنَ المُستَحِيلِ أن أستَقبِلَ فِيهَا صَاحِبَتِي يَا صَاحِبِي.

كُنتُ فِي مَطلعِ الرَّابِعَة عَشَر مِنَ العُمرِ وَأبِي يوشِكُ عَلَى نَقشِ اسمهِ فِي كِتَابِ غِينِيس كَأفقَرِ مُعَلِّمٍ لِلجُغرَافِيَا تَمَّ رَصدُهُ فُوقَ سَطحِ الكَوكَب اللعين. جَارتُنَا الشَّهيّةُ ضَرَبَ اللهُ عَلى قلبِهَا وأُعجِبَت بِي، الهرمُونَاتُ الأنثَويَّة فِي جَسَدِهَا تَشعُّ بِطَرِيقةٍ مُذهِلَةٍ لَكِن، أينَ سَأختَلِي بِهَا؟

ذَاتَ مَسَاءٍ، وَجَمِيعُ أفرَادِ العَائِلَةِ نِيَامٌ فِي الغُرفَةِ المُزدَحِمَة قَفَزتُ مِن فِرَاشِي كَمَا قَفَزَ أرخَمِيدس وَصَرَختُ بِأعلَى الصُّوتِ كَما صرخ..

.وَجَدتُهَا.. وَجَدتُها.

استَيقَظَ الجَمِيع.

أُمِّي الحَبِيبَة ظَنَّت أنَّنِي عَثَرتُ عَلَى رَكوَةِ القَهوَةِ الَّتِي بَحَثنَا عَنهَا صَبَاحَاً دُونَ طَائِل. أبِي المَعتُوه اعتَقدَ أنَّنِي وَجَدتُ حَلَّاً لِمَسأَلَةِ الرِّيَاضِيَّاتِ الَّتِي نَاقَشتُهُ فِيهَا بَعدَ عَودَتِي مِنَ المَدرَسَة. أُخوَتِي الصِّغَارُ حَسِبُوا أنَّنِي اكتَشَفتُ كَنزَاً سَيُنقِذُنَا مِنَ الفَقرِ المُدقِع.

اعتَذَرتُ عَن إيقَاظِهِم وتَخييبِ آمَالِهِمِ ثُمَّ رَجَوتُهُم أن يَعُودُوا إلَى النَّومِ كَي يَحلمُوا عَلَى الأقل.

عِندَمَا شَرَحتُ تَفَاصِيلَ الخُطَّةِ المُحكمَةِ لِصَدِيقَتِي الَّتي كَانَت تَصغُرنِي بِعامِين لَم تُوَافِق بادِئ الأَمر..

.هَذِهِ مُغَامَرَةٌ خَطِيرَة.

قَالَت وَهِيَ تَعضُّ شَفَتَهَا فَبَدَت أكثرَ إثَارَة.

.لَا مُغَامَرَة وَلَا بطيخ..

قُلتُ بِنَبرَةِ الوَاثِقِ، المُتَوَكِّلِ، المُعتَصِمِ، المُخَضرَم.

بَعدَ صَدٍّ وَرَدٍّ وَمُدَاوَلَاتٍ وَمُهَاتَرَاتٍ، وَافَقَتِ الصَّبِيَّةُ عَلَى الخُطَّة. .تَغِيبُ الشَّمسُ عِندَ السَّادِسَةِ، سَأنتَظِرُكِ هَنَاك، هَل أنتِ وَاثِقَةٌ مِن مَعرِفَتِكِ المَكَان؟

.وَاثِقَة.

كَرمُ الزَّيتُونِ المُتَاخِمُ لِقَريَتِنَا كَبِيرٌ جِدَّاً، السَّيَّارَاتُ فِي البَلدِ. بِشَكلٍ عَام وَقتَ ذَاك قَلِيلَةٌ جِدَّاً وأهلُ القَريَةِ لَم يَكُونُوا قَد اكتَشَفُوا بَعد طَرِيقَةَ الفِيرُوسَاتِ بِالتَّكَاثُرِ.

مَع قَلِيلٍ مِنَ الحَذَرِ، وَبِكَثِيرٍ مِنَ التَّدبِيرِ المُتقَنِ اتَّفَقنَا عَلَى الآتِي:

صَديقَتُهَا المُقرَّبة سَتصحَبُها مَع أخِيهَا الصَّغِير إلَى تُخُومِ الكَرمِ كَي ألَاقِيهَا هُنَاك وَعِندَ العَودةِ بَعدَ سَاعةٍ سَيكُونَانِ بِالانتِظَارِ لِيُرَافِقَاهَا إلَى المَنزِلِ فَيبدو الأمرُ وَكَأنَّهَا كَانَت طوَالَ الوَقتِ مَعهُمَا.

وَصَلتُ الكَرمَ قَبلَ المَوعِدِ بِنِصفِ سَاعَةٍ مُزَوَّداً بِكَامِلِ العَتَاد.

شَرشَفٌ صَغِيرٌ، زُجَاجَةُ نَبِيذٍ مِنَ المِيمَاسِ المَزّ سَرَقتُ خَمسَةً وَثَلاثِينَ لَيرَةٍ مِن وَالِدِي كَي أشتَرِيهَا. عُلبَةُ سَجَائِرٍ مِن مَاركَة (الشَّام) سَرَقتُ عَشرَ لَيرَاتٍ مِن أمِّي فِي سَبِيلِهَا، أمَّا شَجَرَةُ الزَّيتُونِ فَكانَ اللهُ قَد أنبَتَهَا هُنَاكَ قَبلَ زَمَنٍ بَعِيد..

حَتَّى اللَّحظَةِ، وَقَد بَلغتُ مِنَ العُمرِ مَا بَلغتُ، لَم أمَيِّز تَمَامَاً أيَّهُمَا كَانَ أشهَى، انتِظَارُ الفَتَاةِ بِكَامِلِ اللَّهفَةِ وَالشَّوقِ وَشِيءٍ مِنَ الخَوفِ، أم لُقيَاهَا بِهِم.

حينَ أشرَقَت فِي عَتمةِ ذلكِ الكَرمِ شَعَرتُ بِمَلمَسِ قَلبِي بَينَ قَدَمَي. فَاحَ عِطرُهَا وَتَسَرَّبَ إلَى خَلَايَا دَمِي المُشتَعِل. هَيَّأتُ المَكَانَ كَمَا يَلِيقُ فَجَلَسَت وَمِثلُهَا فَعَلت. انتَظَرتُهَا كَي تَلتَقِطَ أنفَاسَهَا ثُمَّ كَبعتُ بَعضَ النَّبِيذِ وَأشعَلتُ سِيجَارةً عَلَى الفَورِ سَرَقتَهَا مِن فَمِي. أشعَلتُ وَاحِدَةً لِنَفسِي وَقُلتُ عَبرَ دُخَانِهَا: .نَوَّرتِ المَكَان..

كَانَت جَوقَةٌ مِن كَائِنَاتِ المَسَاءِ تُرَتِّلُ أنشُودَة الفَرحِ وَالجَوُّ عَابِقٌ بِرَائِحَةِ الأعشَابِ النَّدِيَّةِ وَمِن بَعيدٍ تَلُوحُ أضوَاءُ بسنادا بِكَسلٍ لَذِيذ.

تَلَفَّتَتِ الصَّبِيَّةُ حَولَهَا فَلم ترَى سِوى خَيَالَاتٍ لِأحجَارٍ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرةٍ، جُذُوعاً مُنتَشِرَةً هُنَا وَهُنَاكَ لِأشجَارِ الزَّيتُونِ المُبَارَكةِ، ثُمَّ قَالَت:

.مُنَوَّرٌ بِوُجُودِك.

عِندَمَا يَبتَسِمُ لَكَ الإلَهُ مَا مِن قُوَّةٍ عَلَى هَذِهِ الأرضِ تَستَطِيعُ تَكدِيرَك.

ذَلكَ المَسَاء مِن عَام 1998، وَفِي لَفتَةٍ تَارِيخِيَّةٍ، كَانَ الإلَهُ مُبتَسِماً لِي.

اقتَرَبتُ حَتَّى غَدُوتُ مُلَاصِقَاً لَهَا فَاستَنشَقتُ عَبِيرَ عِطرِهَا المَمزُوجِ بِالعَرَق. أطبَقتُ شَفَتَيَّ عَلَى فَمِهَا فَتَذَوَّقتُ بِلُعَابِهَا طَعمَ النَّعنَعِ البَرِّي، وحِينَ أخرَجتُ نَهدَهَا مِن عَرِينِهِ وَتَلَمَّستُ بِأصَابِعِي حَلمَتَهُ السَّمرَاءَ الفَتِيَّة اندَلَعَت عَلَى الفُورِ فِي عُرُوقِي نَارٌ لَم يُخمِدهَا التِهَامِي لِذَينِيكَ النَّهدِينِ وَمَا تَيَسَّرَ مِن جَسَدِهَا الأوغَارِيتِي فَكَانَ مَا كَانَ لَعَلَّكُم تَتَخَيَّلُون.

بالنِّسبَةِ لِلبَعضِ، الشَّجَرَةُ مَصدَرٌ لِلأوكسِجِين، وبِالنِّسبَةِ لِلبعَضِ الآخَر مَصدَرٌ لِلغِذَاءِ أو الفيء.....

بِالنِّسبَةِ لِشَّابٍ فَقِيرٍ فِي القَريَةِ لَا مَكَانَ يَصحَبُ إلِيهِ حَبِيبَتَهُ، الشَّجَرةُ جَنَّة.

***

وَادِي قنديل

طَلَبتُ مِنَ النَّادِلِ زُجَاجَةً خَامِسَةً مِنَ البِيرَةِ البَارِدَةِ عِندَمَا حَاوَلَ بَاسِلٌ الإلتِفَافَ بِحِصَانِهِ سَعيَاً لِقَتلِ فِيلِي الشُّجَاع.

كَانَ المَقهَى البَحرِي المُنزَوِي أقصَى اليَمِينِ عَن شَاطِئِ وَادِي قِندِيل خَالِيَاً مِنَ الرُّوَّادِ بَعدَ مُنتَصَفِ الَّليل.

شَرَعَت نُسَيمَاتٌ طَيِّبَةٌ بِمُدَاعَبَةِ سُعُفِ النَّخِيلِ الَّتِي غَطَّت سَقفَ المَقهَى المُضَاءِ بِخَمسَةِ مَصَابِيحٍ صَفرَاءٍ تَسَلَّلَ بَعضٌ مِن نُورِهَا واسَتَقَرَّ فَوقَ المُوجِ المَشغُولِ بِمُغَازَلَةِ الرِّمَالِ التَّوَّاقَة.

أَشعَلتُ سِيجَارَةً بَعدَ أن سَكَبتُ فِي كَأسِي وَكَأسِ العَدُوِّ مَا تَيَسَّرَ مِنَ البِيرَةِ مُوهِمَاً إِيَّاهُ أَنَّنِي غَافِلٌ عَمَّا اقتَرَفَت يَدَاهُ قَبلَ قَلِيلٍ وَرُحتُ أدَندِنُ مَع الغَزَالِي..

.وَأنَا اشتِرِي بِالرُّوح.. شَامَة الِّلي بخدّك..

.لَعَلَّكَ لَا تُرِيدُنِي أن أبقَى فِي انتِظَارِ خُطوَتِكَ القَادِمَة حَتَّى الصَّبَاح؟

قَالَ بَاسِلٌ وَهُوَ يَعُبُّ التَّبغَ مُخرِجَاً الدُّخَانَ بِطَرِيقَةٍ مُضحِكَةٍ مِن مِنخَرِيه.

. أرجُو ألَّا أكُونَ قَد أخَّرتُكَ عَن سكَارليت جُوهَانسُون أيُّهَا الذُّوقُ النَّبِيل، أعلَمُ أنَّهَا فِي انتِظَارِكَ تَشعُرُ بِالمَلَل.

عِندَمَا تَرجِعُ إليهَا قَدِّم اعتِذَارِي أرجُوك.

قُلتُ وَأنَا أنقُلُ فِيلِي الرَّشِيقَ بِخَطٍّ مَائِلٍ مِنَ المُرَبَّعِ الأسوَدِ مُنتَصَفَ الرّقعَةِ إلَى المُرَبَّعِ الأسوَدِ أقصَى اليَسَارِ مُهَدِّداً وَزِيرَ العَدوِّ الغَاشِمِ فَقَد كَانَ الفِيلُ مَحمِيَّاً بِوَزِيرِي المِقدَام.

لَم تَرُق لِبَاسِل خُطوَتِي لَكِنَّهُ لَاعِبٌ بَارِعٌ فَلَم يَكتَفِ بِإنقَاذِ وَزِيرِهِ الفَاسِد بَل قَامَ بِنَقلَةٍ خَسِيسَةٍ تَمَكَّنَ فِيهَا مِن تَدمِيرِ قَلعَتِي اليُمنَى وَسطَ حَالَةٍ مِنَ الذُّهُولِ وَالتَّضلِيلِ الإعلَامِي.

ارتَسَمَت عَلَى وَجهِهِ تَلكَ الابتِسَامَةُ السَّاخِرَةُ وَهَذَا مَا تَسَبَّبَ فِي ارتِفَاعِ مَنسُوبِ غَيظِي لَكِنَّنِي لَم أستَسلِم .

خَاطَبتُ جُنُودِي الصَّنَادِيدَ وَقُلت:

يَا أشرَفَ المُقَاتِلِين وَأشجَعَ الشُّجعَانِ، لَقَد تَمَكَّنَ العَدُوُّ الجَبَانُ مِن تَفخِيخِ قَلعَةٍ لَنَا وَتَفجِيرِهَا لَكِنَّ قَلعَتَنَا اليُسرَى مَا تَزَالُ صَامِدَة فِي وَجهِ التَّطَرُّفِ الحَقِير.

نَحنُ لَن نَكُونَ لَقمَةً سَائِغَةً وَدَعُونَا لَا نَنسَى الدَّورَ الكَبِيرَ لِحِصَانِينَا الأَصِيلِينِ وَوَزِيرِنَا الشُّجَاع.

أيُّهَا الأشَاوِسُ، تَفَتُّحُ زَهرَةٍ يَجِبُ ألَّا يَعنِي لِعَدُوِّنَا قُدُومَ الرَّبِيعِ، وَكَمَا تَعرِفُونَ، المَرأَةُ الجَمِيلةُ استِرَاحَةُ المُحَارِبِ المُغوَار.

إلَى الأَمَام.. هُجُوم ..

خِلَالَ المَعرَكَةِ استُشهِدَ لِي أربَعَةُ جُنُودٍ وَحِصَانٌ بَينَمَا تَجَاوَزَت خَسَائِرُ العَدُوِّ الحِصَانِينِ وَالثَّلَاثَة جُنُود.

كُنَّا فِي الرُّبعِ سَاعَةٍ الأخِير مِنَ الحَرب.

طَلَبنَا زُجَاجَةً سَادِسةً مِنَ البِيرَةِ ثُمَّ أشعَلنَا سِيجَارَتِين وَكُلُّ وَاحِدٍ يَنتَظِرُ خَطَأً فَادِحَاً مِنَ الخَصمِ يَحسمُ الأمُورَ لِصَالِحِه.

فَجأَةً ..

قَامَ بَاسِلٌ بِنَقلِ وَزِيرِهِ إلَى مُرَبَّعٍ مَكَّنَنِي مِن تَحرِيكِ حِصَانِي بطَرِيقةٍ تسمَحُ لِي فِي نَفسِ الوَقتِ بِتَهدِيدِ مَلِكِهِ وَوَزِيرِهِ وَهِي حَركة قَاتِلةٌ فِي لُعبَةِ الشّطرَنج لِأنَّ مَن يَقعُ فيهَا سَيكُونُ مُجبَرَاً عَلى تَهرِيبِ المَلِك فَيَمُوتُ الوَزِيرُ مِيتَةَ الكِلَاب.

استسلَمَ الخَصمُ ذَلِيلا.

بِهُدُوءٍ وَرَوِيَّة، سَحَبتُ سِيجَارَةً مِن عُلبَةِ التَّبغِ وَأشعَلتُهَا ثُمَّ نَظَرتُ فِي عينِ صَدِيقِي فَرَأيتُ الدَّمعَ مُغرَورِقَاً.

.بَسِيطَة يَا صَاحِبِي..

قُلتُ سَاخِرَاً مُستَفِزَّاً..

.حَتَّى أمهَرُ اللَّاعِبين مُعَرَّضُونَ لِلخسَارةِ وَمِن بَينِهم أنَا.

غَرِقنَا فِي نَوبةٍ مِنَ الضَّحكِ وَالسُّعالِ وَسطَ ذَلكَ الّلِيلِ البَعِيد وَأمُّ كُلثوم تَسعَى فِي المَدَى كَوَجهٍ جَمِيلٍ لَا نَعرفهُ لَكِن نُريدُ لُقيَاه.

.يَا هُدَى الحَيرَان فِي لِيلِ الضَّنَى..

وَفِي الأفُقِ النَّائِي أضوَاءٌ صَغِيرَةٌ لِقَوَارِبِ صَيدٍ تَشُعُّ مِثلَ النُّجُوم.

***

شَخصٌ لَن يَفتَقِدَهُ أَحَد

استَغنَى رَبُّ العَملِ عَن خَدَمَاتِي بِحِجَّةِ التَّقصِيرِ فِي الوَاجِبِ فَقُلتُ:

.الجُثُثُ كَثِيرَةٌ وَلَا أستَطِيعُ دَفنَهَا بِسُرعَة.

رَاحَ يَصرُخُ كَالمَجنُونِ بِكَلامٍ نِصفُهُ غَيرُ مَفهُومٍ لَكِنَّهُ لَم يَكتَفِ بِذَلِكَ، شَتَمَ أُمِّي.

هَوَيتُ بِالفَأسِ الَّتِي كُنتُ استَخدِمُهَا لِحفرِ القُبُورِ على رأسِهِ فَانفَجَرَ الدَّمُ كَنَافُورَةٍ وَأصبَحَ الحَقِيرُ بَعدَ دَقِيقَةٍ مِنَ المُعَانَاةِ فِي العَالَمِ الآخَر.

.الآن، لَا يُمكِنُكَ التَّشَكِّي مِن تَقصِيرِي فِي العَمَلِ أيُّهَا السَّمِين.

تَبًّا لِلعَملِ، وَلِأربَابِ العَمَلِ، وَلِمَن جَعَلَ الأمُورَ تَسِيرُ عَلَى هَذَا المِنوَال.

هَدَأ انفِعَالِي قَلِيلاً فَأشعَلتُ سِيجَارَةً وَجَلَستُ أتَأَمَّلُ الجُثَّة.

مُذ بَدَأتِ الحَربُ اللَّعِينَةُ مَا عُدتُ أذكُرُ عَددَ الجُثَثِ الَّتِي أودَعتُهَا بَاطِنَ الأرض.

لَطَالَمَا كَانَت مَشَاعِرِي حِيَادِيَّةً تِجَاهَهَا فَدَفنُ الأموَاتِ بِكَثرَةٍ يُحَوِّلُكَ مَع مُرُورِ الأيَّامِ إِلَى مَلاكٍ بِلا إحسَاس.

الغَرِيبُ فِي الأمرِ أنَّ جُثَّةَ رَبِّ العَمَلِ كَانَ لَهَا بَعضُ التَّأثِيرِ عَلَيّ، رُبَّمَا لِأَنَّنِي مَن جَعَلَ صَاحِبَهَا عَلَى هَذِهِ الهَيئَة.

كَانَ القَتِيلُ يَبدُو بِكِرشِهِ الكَبِيرِ وَصَلعَتِهِ الحَقِيرَةِ وَعَينِيهِ المَنفُوخَتِينِ كَأَنَّهُ يَلُومُنِي عَلَى مَا فَعَلتُهُ فَهَمَست:

. لِمَاذَا شَتَمتَنِي أيُّهَا الأحمَق؟ لَم يَكُن يَجدرُ بِكَ فِعلُ ذَلِكَ وَأنتَ الوَحِيدُ مِن بِينِ هَؤُلاءِ المَوتَى الَّذِي يَعرِفُ كَم أبذلُ مِنَ الجُهدِ حَتَّى لَا تَتَفَسَّخُوا فِي العَرَاء.

الأرضُ اللَّعِينَةُ لَا تَرتَوِي، أنتَ لَا تَرتَوِي، السَّمَاءُ لَا تَرتَوِي، وَأنَا تَعِبت.

عِوضَاً عَن مُكَافَأتِي قُمتَ بِشَتمِي! مَا الَّذِي كُنتَ تَتَوقَّعهُ؟ أن أشكُرَك!

قُبَيلَ المَسَاءِ، أنهَيتُ حُفرَةً جَدِيدَةً ثُمَّ ألقَيتُ الجُثَّةَ فِيهَا.

نقصَ سُكَّانُ العَالَمِ شَخصَاً لَن يَفتَقِدَهُ أحد.

إلَى حَانَةٍ قَرِيبَةٍ شَدَدتُ الرِّحَال.

شَرِبتُ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الخَمرِ ثُمَّ عُدتُ أدرَاجِي مُصطَحِبَاً إحدَى العَاهِرَاتِ الرَّخِيصَات.

كُنتُ أحتَفِظُ فِي غُرفَتِي بِبَعضِ الجَمَاجِمِ البَشَرِيَّةِ كَزِينَةٍ أعَلِّقُهَا عَلَى الجُدرَانِ فَأبدَتِ المَرأةُ دَهشَتَهَا، لَكِنَّهَا لَم تَخَف.

اقتَرَبتُ مِنهَا وَرُحتُ أدَاعِبُهَا.

أخرَجتُ نَهدَهَا بِعُجَالَةٍ وَتَلَقَّفتُ حَلمَتَهُ الزَّهرِيَّةَ بِأسنَانِي فَجَارَتنِي وَأمسَكَت بِيَدِهَا رَأسِي ثُمَّ رَاحَت تَصطَنِعُ التَّأوُهَ غُنجَاً لَكِن، حِينَ مَدَدتُ يَدِي لِأنزَعَ سِروَالَهَا بَحثَاً عَن مِهبَلِهَا المُثِيرِ أَصَرَّت أن أُعطِيَهَا أتعَابَهَا قَبلَ الشُّرُوعِ بِالمُضَاجَعَةِ الفِعلِيَّة.

جُنَّ جُنُونِي مِن تَوقِيتِهَا السّيءِ.

.حَقُّهَا لَن يَضِيعَ فَلِمَ العَجَلة؟ رُحتُ أفَكِّرُ مُنزَعِجَاً.

.الأيَّامُ عَلَّمَتهَا ألَّا تَثِقَ بأحَد.

بَقِيَت مُصِرَّةً عَلَى مَوقِفِهَا فَاستَغنَيتُ عَن خَدَمَاتِهَا وَشَتَمتُ أمَّهَا.

كَانَتِ الفَأسُ التي أحفرُ القبورُ بها فِي الزَّاوِيَةِ المُجَاوِرَةِ لِبَابِ الغُرفَة.

بِسُرعَةٍ عَجِيبَةٍ امتَشَقَتهَا العَاهِرَةُ وَهَوَت بِهَا عَلَى رَأسِي المُثقَلِ بِالكُحُولِ فَانفَجَرَ الدَّمُ كَنَافُورَةٍ ومَا هِيَ إلَّا دَقِيقَةٌ حَتَّى أصبَحتُ فِي العَالَمِ الآخر.

أشعَلَتِ الفَتَاةُ سِيجَارَةً وَجَلَسَت تَتَأَمَّلُ جُثَّتِي الحَقِيرَة ثُمَّ قَالَت:

.كَانَ عَلِيكَ ألَّا تَصرخَ وَألَّا تَشتمَ أمِّي.

مَا الَّذِي كُنتَ تَتَوَقَّعهُ ؟ أن أقُولَ لَكَ شُكرَاً!

قُبَيلَ الصَّبَاحِ أنهَتِ العَاهِرةُ حَفرَ قَبرٍ ألقَت جسدي فِيهِ غيرَ مُدرِكَةٍ أنَّ سُكّانَ العَالمِ نَقصوا شَخصَاً لَن يَفتَقِدَهُ أحَد.

***

المرأة ذات القميصِ الخَمري

جَارَتِي، فِي الطَّابِقِ الخَامِسِ مِنَ العِمَارةِ المُقَابِلةِ، امرَأَةٌ غَرِيبَةُ الطِّبَاع.

كُلَّ مَسَاءٍ تَمَامَ العَاشِرَة، وَمُنذُ قُدُومِهَا قَبلَ شَهرِينِ إِلَى حَيِّنَا، فِي نفسِ الفترةِ التي قدمتُ فيها أنا تَخرُجُ إِلَى الشُّرفَةِ مُرتَدِيَةً قَمِيصَ نَومٍ خَمرِيٍّ يَسمُحُ لِلنَسِيمِ بِمُدَاعَبةِ جَسَدِهَا كَعَاشِقٍ جِيِّدٍ ثُمَّ تَضَعُ فُوقَ الطَّاوِلَةِ رَكوَةَ القَهوَةِ وَتَجلِسُ لِسَاعَةٍ تَرشِفُ مِن فِنجَانِهَا وتُدَخِّنُ السَّجَائِر .

بَعدَ أن تَفرغَ مِنَ السَفَرِ بِعَينِهَا فِي المَجهُولِ، تَعُودُ إِلَى صَالُونِ شَقَّتِهَا ذِي النَّافِذَةِ المُبَارَكَة، تَضَعُ فِي آلَةِ التَّسجِيلِ اسطوَانَةَ مُوسِيقَى وَتَبدَأُ الرَّقص.

لَم يَهَبنِي الرَّبُّ مَوهِبَةً أو هوَايَةً، فَأَنَا رَجُلٌ بَسِيط، أعمَلُ عَبدَاً فِي هَيئَةِ مُوظَّفٍ وَأعِيشُ وَحدِي مُنذُ الأزَل .

شَاءَ لِي اللهُ أن أكُونَ سَاذَجَاً جِدّاً فَكَانَت مُرَاقَبَةُ جَارَتِي كُلَّ مَسَاءٍ هِوايَتِي وَمَوهِبَتِي الوَحِيدَة .

حِرصَاً مِنِّي عَلَى ألَّا أَلفِتَ انتِبَاهَهَا، أَطفُئُ مِصبَاحَ غُرفَتِي وَاتَّخِذُ مَجلِسِي بِالقُربِ مِنَ النَّافِذةِ بَعدَ أن أكُون قَد هيأتُ لِنَفسِي كَأسَاً مِنَ المَتَّةِ ثُمَّ أُشعِلُ سَجَائِرِي الوَاحِدَةَ

تِلوَ الأُخرَى سَائِلاً المَولَى أن تَقُومَ السَّيِّدَة بِجَمِيعِ الحَرَكَاتِ الَّتِي تَجعَلُ مِن اهتِزازِ نَهدِيهَا أكثَرَ وَأكثَرَ خِلَالَ الرَّقص .

. إنَّ اهتِزَازَ نَهدِي المَرأةِ أجمَلُ بِألفِ مرّةٍ مِن شلالاتِ نِيَاغَارَا وغابَاتِ الأمَازُونِ العَظِيمَة وجَمِيعِ المناظرِ الطبيعيةِ في العالم.

قُلتُ لِنَفسِي وَأنَا أُرَاقِبُ وَلَا أشبَع.

كَانَ خَصرُهَا يَمِيلُ عَلَى وَقعِ المُوسِيقَى كَمَا يَمِيلُ النَّخِيلُ فِي لَيلَةِ خَرِيفٍ هَادِئَة أمَّا رُوحِي فَكَانَت كُلَّمَا هَزَّت مُؤَخِّرَتَهَا تَخرُجُ مِن جَسدِي هُنَيهَاتٍ تَرَى فِيهَا الكَوَاكِبَ كَيفَ تَدورُ حَولَ النَّجمِ المُقَدَّسِ ثُمَّ تَعُود.

ذاتَ مَساءٍ، اتَّخَذتُ القَرَار. هِيَ وَحيدةٌ وَأنَا كائنٌ شِبهُ مُنقَرِض، سَأقصِدُ دَارَهَا وَمَن يَدرِي، رُبَّمَا تَقبل .

ارتَدِيتُ أجمَلَ قَمِيصٍ عِندِي بَعدَ أن حَلقتُ ذَقنِي وَوَضعتُ القَلِيلَ مِنَ العِطرِ ثمَّ قَصَدتُهَا .

طَرقتُ البَابَ مَرَّةً وَاثنَتِين وَثَلاث، دُونَ جَدوى .

وَقفتُ حَزِينَاً خَائِبَاً، حِينَ أوشكتُ عَلَى الانصِرَافِ رأيتُ عَجُوزَاً يصعدُ الدَّرج.

نَظَرَ إليَّ بِدَهشَةٍ وَرِيبةٍ ثُمَّ استَفسَرَ عَن سَبَبِ وُقُوفِي بِبَابَ الشَّقَّةِ الصَّامِتَة.

قلتُ :

. قَصدتُ السَّيِّدَةَ صَاحِبَةَ الشَّقَّةِ بِأَمرٍ هَام وَلَم أكُن أعلَمُ أنَّهَا تَخرُجُ فِي مِثلِ هَذا الوَقت.

أوقَعَ الكَهلُ مِن يَدِهِ كِيسَ التُّفَّاحِ وفنجرَ عينيهِ كأنَّهُ رَأى شَبَحَاً .

لَا أذكُرُ كيفَ وصلتُ الغُرفة.

فِي قَلبِ خَوفِي اتَّخَذتُ مَجلِسِي قُربَ النَّافِذةِ أدَخِّنُ مُستَعيدَاً ما قالهُ العَجُوز.

. هَذا يا بني مَنزِلٌ مَهجُورٌ مُنذُ خَمسَة عَشَر عَامَاً، كانت صَاحِبتُهُ امرأةً رَائِعةَ الجَمَالِ لَكِنَّهَا ألقَت بنفسها مِن على الشرُفةِ دونَ أن يعرفَ أحدٌ السبب.

أغلبُ الظنِّ أنَّهَا كَانَت عَاشِقَةً لِرَجُلٍ خَذَلَهَا.

كَثُرتِ الأقَاوِيلُ بَعدَ انتِحَارِهَا وَهُنَالِكَ مَن قَالَ إنَّهَا مُجَرَّدُ عَاهِرةٍ رخيصةٍ قتلت نفسها في لحظةِ ضمير.

أشعَلتُ سِيجَارَةً جَديدةً وَرحتُ أرَاقِبُ مِن بَعيدٍ شَبَحَاً لامرَأةٍ تَرقصُ بِقَمِيصِ نَومٍ خَمرِي عَلى وَقعِ مُوسِيقَى خَرِيفِيَّةٍ هَادِئَة.

***

فِي ذَلِكَ الزَّمَن كَانَ الكِتَابُ هَدِيَّةً حُلوَة

بِالقُربِ مِن سُوقِ الخُضَارِ القَدِيم فِي قَلبِ الَّلاذِقيّةِ، تَنبَعِثُ رَائِحَةٌ غَرِيبَة.

إِنَّهُ مُنتَصَفُ ظَهِيرَةِ يَومٍ مَن تِسعِينِيَّاتِ قَرنٍ مَضَى.

عَشَرَاتُ السَّرَافِيسِ تَملأُ الشَّوَارِعَ جِيئَةً وَذَهَابًا، النَّاسُ عَائِدونَ مِن أعمَالِهِم وَمِن بَينِ تِلكَ النُّهُودِ الشَّهِيَّةِ لِنُسوَةٍ عَابِرَات تَنبَعِثُ رَائِحَةٌ غَرِيبَة.

يَا إِلَهَ العَرشِ، يَا إِلَهَ الَّلاذِقيَّةِ الَّتِي كَانَت.

.مَا الَّذِي نَفعَلُهُ هُنَا؟

سَألَتْ عَفَاف البِيطَار بَينمَا كُنتُ أشتَرِي عُلبةَ سَجَائِرِ حَمرَاء طَوِيلَة مِن صَاحِبِ (البَسطَةِ) الصَّغِيرةِ قُربَ الشَّارِعِ الصَّاعِدِ بِاتِّجَاهِ سَاحةِ الشّيخ ضَاهر.

كَانَت تَرتَدِي بِزَّة الفُتُوَّةِ، شَعرُهَا الطَّوِيلُ مَربُوطٌ كَذِيلِ الحِصَانِ وَعَلَى وَجهِهَا انسَدَلَت ثَلاثُ خُصُلَاتٍ ظَلَّت بَينَ الحِينِ وَالحِينِ تُحَاوِلُ رَفعَهَا بِيدِهَا ذَاتِ الأَصَابِعِ الصَّغِيرَةِ وَفِي عَينِهَا العَسَلِيَّتِينِ خَوفٌ وَلَهفَةٌ وَقَلقٌ زَادُوهُا جَمَالًا وَأنُوثَةً أمَّا حَقِيبَتُهَا المَدرَسِيَّةُ السَّودَاءُ فَكَانَت مُلقَاةً بِلَا مُبَالَاةٍ فَوقَ كتفها.

مُنذُ وُصُولِنَا وَهِيَ تَعُضُّ شَفَتَهَا بِعَصَبِيَّةٍ حَاوَلَت إِخفَاءَهَا تَحتَ رِدَاءِ الحُبِّ لَكِنَّهَا لَم تُفلِح.

تِلكَ الصَّبِيَّةُ لَم تَعرِف أبَداً كَم كَانَت شَهِيَّةً وَهِيَ تَفعَلُ ذَلِك.

.أُحِبُّ هَذَا المَكَان.

قُلتُ وَأنَا أُشعِلُ سِيجَارَةً تَنَفَّستُ دُخَانَهَا بِكُلِّ خَلِيَّةٍ مِن خَلايَا دَمِي.

شَجَرَةُ زَنزَلَختٍ مَحنِيَّةٌ بِفِعلِ الزَّمَن، أبنِيةٌ قَدِيمَةٌ فِي جُدرَانِهَا المُتَآكِلَةِ الطِّلَاء حُفَرٌ عَدِيدَةٌ تَرسمُ وُجُوهَاً عَجِيبَةً وَأمَامَ مَتجَرٍ صَغِيرٍ لِلبَهَارَاتِ رَاحَ مُسِنَّانِ يَرمِيانِ النَّرد.

.لَا أفهمُ مَا الَّذِي تُحِبّه؟

لَم أُجِب، أمسكتُ يَدَهَا، فَابتَسَمَتْ وَسَحَبَتْهَا بِهُدُوء.

.أخَافُ أن يَرَانَا أحدٌ يَعرِفُنِي.

عَن يَسَارِ السَّاحَةِ الَّتِي تَتَجَمَّعُ فِيهَا سَرافِيسُ الشَّاطِئِ الأزرَق وَأوغَارِيت وَرأس شمرا، مَكتَبةٌ.

طَلَبتُ مِنَ الصَّبِيَّةِ الانتِظَارَ خَارِجَهَا وَدَخلت ثُمَّ خَرجتُ حَامِلاً فِي يَدِي كِتَاباً قُلتُ بَعدَ أن قَدَّمتُهُ لَهَا:

.أنتَظِرُ رَأيك.

كَادَت تَطِيرُ مِنَ الفَرَح، فِي ذَلكَ الزَّمَن، كَانَ الكِتَابُ هَديّةً حُلوَة.

بَعدَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، رَنَّ هَاتِفُ المَنزِلِ رَنَّةً وَاحِدةً عِندَ الثَّانِيةِ بعد منتصف الليل.

طَلَبتُ رَقمَ مَنزِلِهَا بِرَنَّةٍ وَاحِدَةٍ فَعَاوَدت الاتّصَالَ، جَاءَنِي صَوتُهَا كَنسمَةِ صَيف.

."اشتقتلَكْ".

قَالَت بِبَحَّةٍ حَنُونَةٍ شُهوَانِيةٍ تَختَصِرُ تَارِيخَ الأنوثةِ مُنذُ عَشتَار وَحتَّى يَومِنَا.

فِي تِلكَ اللَّحظةِ، وَكَانَ هَاتِفُنَا فِي الصَّالُونِ طَبعًا، استَيقَظَ أبِي دونَ أيّ مُبررٍ وَوَقفَ يَتَأمَّلُنِي بِاشمِئزَاز.

كُنتُ قَد حَشَرتُ نَفسِي قُربَ الشُّبَّاكِ كي لا يَعْبقَ الصَّالُونُ بِدُخَانِ السَّجَائِر مَادًّا سَاقَيَّ عَلى كُرسِيٍّ خَشَبيّ، وَبِقُربِي طَاوِلَةٌ صَغِيرُةٌ عَلِيهَا كَأسُ مَتَّة وَعلبةُ سُكّر ومِنفَضَة.

."اشتقتلَك"

قَالَت مَرَّةً ثَانِيَة.

كُنتُ حَائِرًا مَاذَا أفعَل.

أَبِي يَضبطُنِي لِلمَرَّةِ الأولَى أدَخِّنُ وَأمَارِسُ العِشقَ عَلى أثِيرِ الهَاتِف.

هَل أغلِقُ السَّمَّاعةَ؟ هل أرمِي السِّيجَارَة؟ هَل أعتَدِلُ فِي جَلسَتِي؟

لِسَبَبٍ مَا، قَرَّرتُ أن أتَجَاهَلَ وَالِدي الغَليظَ كُلِّيًّاً وَحِينَ غَادَرَ عَاقِدَاً حَاجِبِيْهِ، سَمِعتُهُ يَقُول:

.(يَلعن أبُوك عَ أبُو هِيك تربايَة يا حقير).

تَظَاهرتُ بِعدمِ الاكتِرَاثِ لَكِنَّ دَقَّات قَلبِي زَادَت عَنِ الأَلف.

.وَأنَا اشتَقتُ إليكِ أكثَرَ مِمَّا تَتَخَيَّلِين.

قُلتُ بَعدَ أن بَلعتُ رِيقِي وَأشعلتُ سِيجَارةً جَدِيدَة.

.اسمعْ، هَذِهِ لكَ.

صَمَتَتْ لِبُرهَةٍ، وَضَعَتْ سَمَّاعَةَ الهَاتِفِ بِالقُربِ مِن آلةِ التَّسجِيل فَزَارَنِي صُوتُ أمِّ كُلثوم:

"أهوَاك فِي قُربَك وف بُعدَك... وَاشتَاق لِوَصلَك وَأرضَى جَفَاك ...

وإنْ غبت أحَافِظ عَلى عَهدك... وافضَل عَلى وِدّي وَيَّاك"...

كَانَ ذَلكَ أجملَ مَا أسمَعتنِي إيَّاهُ أنثَى.

رُحتُ أُحلِّقُ فِي عَالمٍ مُوازٍ لَم يَنتَشِلنِي مِنهُ إلّا صُوتُهَا مَرَّةً أُخرَى وهيَ تَقُول:

.شُكراً عَلى الهَديَّةِ الرَّائِعَة، ثُمَّ أغلَقَتِ السَّمَّاعَةَ عَلى وَعدٍ مَع الغِيمِ الغَرِيب.

كَانَ الكِتَابُ فِي ذلكَ الزَّمَن هَديَّةً حُلوة.

***

قِصَّتِي مَعَ الرَّئِيس

لَم يُفَاجِئنِي الرَّئِيسُ حِينَ جُنَّ جُنُونُهُ وَرَاحَ يَصرخُ:

.أيُّ هُرَاءٍ وأيُّ إسفَافٍ وَأيُّ ابتِذَالٍ؟

كُنتُ أرَاقِبُ رَبطَةَ عُنقِهِ وَهِيَ تَتَدَلَّى فَوقَ كِرشِهِ مُتَخَيِّلاً أنَّهَا حَبل مِشنَقَةٍ زِمَامُهُ فِي يَدِي.

بَعضُ القُصَاصَاتِ الوَرَقِيَّةِ كانَت مُوزَّعَةً فوقَ مَكتَبِهِ إلَى جِوَارِهَا فُنجَانُ قَهوةٍ وَهَاتِفٌ بَالإضَافَةِ إلَى جَرِيدَةِ اليوم وَحَاسُوبٍ مِن مَاركَةِ (آبل) .

كُنتُ مُعتَادَاً عَلَى انفِعَالَاتِهِ المُبَالَغِ فِيهَا فَقَدَّمتُ لهُ سِيجَارَةً أشعَلتُهَا ثُمَّ أشعلتُ لِنفسِي وَاحِدَةً وَلَم أنطِق بِحَرف.

.مَا هَذِهِ القِصَّةُ البَائِسَة؟ أَوَاثِقٌ أنَّكَ مَن كَتَبَهَا؟

أومَأتُ بِالإيجَابِ بَينَمَا رُحتُ أرشفُ مِن فُنجانِ القَهوةِ البَارِدةِ الَّذِي أحضَرَتهُ السِّكرتيرةُ بُعَيدَ دُخُولِي المكتَبَ وَكَانَ قَد أنسَانِي مَشهدُ مُؤَخِّرَتِهَا المُكتَنِزَةِ أن أشرَبَ مِنه.

.أينَ الفِكرَةُ؟ أينَ الحَبكَةُ؟ أينَ المَغزَى؟ أينَ الأسلُوبُ؟ وَكيفَ تُسبِّي هَذهِ قِصَّة؟

أجَبت:

.إنَّهَا مُجَرَّدُ قِصَةٍ قَصِيرَة.

رَنَّ الهَاتِفُ فَأجَابَ مُتَصَنِّعَاً الهُدُوء، فِي تِلكَ الأثنَاء دَخَلت السِّكرتيرَة مِن جَدَيدٍ وَانحَنَت لِتَهمِسَ فِي أذنِ الرَّئِيسِ أمراً خَاصَّاً فَرَأيتُ حَمَّالَةَ صَدرِهَا الَّتِي تَحمِلُ صَدرَهَا وَيَا لَهُ مِن عَمَلٍ نَبِيل.

كَانَ صَدرُهَا أبيَضَاً أمّا حَمَّالَتُه فزَهرِيَّة وَقَد استَنتَجتُ أنَّ الرَّئِيسَ يُضَاجِعُهَا سِرًّا بَعدَ أن لَمَحتُهُ يُمرِّرُ أَصَابِعَ يَده من تحتِ مَسندِ الكُرسِي لِتُلَامِسَ سَاقَهَا.

انصَرَفَت السَّيدةُ بِهدُوءٍ لكنَّ اهتزازَ مُؤخِّرَتِهَا كَانَ أكثرَ روَعة هذهِ المرّة.

أنهَى الرَّئِيسُ مُكَالَمتهُ وَبَعدَ أن استَغفَر رَبَّهُ قَال:

.بِمَاذَا كُنتَ تُفَكِّرُ وَأنتَ تَكتبُ هَذَا الهُرَاء؟

تَحَمَّلتُ وَقَاحَتَهُ عَلى مَضَضٍ لَغَايَةٍ فِي نَفسِي لَا نَفسِ يَعقُوب.

أخبَرتُهُ أنَّنِي سَأفسِحُ لهُ المَجَالَ لِمُطَالَعَةِ القصَّةِ بِتَرَوٍّ فِي المَنزِلِ بَعِيداً عَن ضَغطِ العَملِ وَلأجلِ هَذا سَأعُودُ غَدَاً لأقبضَ مُكَافَأتِي.

كَانَت مَكاتِبُ المُوظَّفِينَ شِبهَ خَاوِيَةٍ فَقَد جَاوَزتِ السَّاعةُ الثَّالثَةَ ظُهراً.

انتَظَرتُ الحَافِلةَ وبعدَ أن صعدتُ لَم أجِد مَكَانَاً لأَجلِس فَبَقِيتُ وَاقِفَاً وَأنَا أمسِكُ عَارِضَةً حَدِيدِيَّةً وُضِعَت فِي الحَافِلاتِ لِهَذَا الغَرَض.

أمَامِي وَقَفَت فَتَاةٌ تَرتَدِي بِنطَالاً ضَيِّقَاً مِنَ الجِينزَ وَقَمِيصَاً حِريرِيَّاً أبيَضَاً تَمَنَّيتُ لَو كَانَ الازدِحَامُ دَاخِلَ الحَافِلةِ أشدَّ كَي ألتَصِقَ بِمُؤخِّرَتِهَا دُونَ مَلامَةٍ لَكنَّ الازدحَامَ لَم يَكُن عَلَى قَدرِ التَّطلعات.

بَينَ مُوقِفِ الحَافِلة وَالحَارَةِ العَشوَائِيةِ التِي أعيشُ فِيهَا رُبعُ سَاعَةٍ مِنَ المَشِي.

دخلتُ الزُّقَاقَ التُّرَابِي وَكَانَ أشبهَ بِمُستَنقَعٍ بَعدَ ليلةِ أمسِ المَاطرَة.

حينَ أصبحتُ فِي غُرفَتِي استَلقَيتُ عَلى الأرِيكةِ الَّتِي كُنتُ أستَخدمُهَا كَسَرِيرٍ أيضَاً، كنتُ جَائِعَاً فلَم أستطَع النَّومِ، دَخَلتُ المطبخَ، وجدتُ فِي البرَّادِ صَحنَاً مِنَ الفول، قمتُ بِتسخينِهِ والتِهامهِ مَع بعضِ الثومِ والطَّماطِمِ.

لَا أذكُرُ مَتَى غَفُوتُ وَحِينَ أفَقتُ مَع طَلَائِعِ المَسَاءِ كانِتِ الكَهرباءُ مقطوعةً فَأشعَلتُ شَمعَةً وَلَعَنتُ الظَّلَام.

صَنَعتُ لِنفسِي فُنجَانَ قَهوةٍ شَربتهُ مَع سِيجَارَة ثمَّ راحَ الوقتُ يَمضِي بِبُطء.

اتصَلتُ بِالعاهِرةِ الرَّخِيصَةِ الَّتِي اعتدتُ مُضَاجَعَتَهَا مُقابلَ مَبلغٍ قليل.

حينَ أصبَحَت في الغرفةِ ضَاجَعتُهَا فِي فِمهَا ثمَّ قذفتُ فوقَ شفتيها، أعطيتُهَا النقودَ وشَكرتُها على صَنيعِهَا وبعدَ أن غَادَرَت اغتَسلتُ وَنِمت.

كُنتُ فِي مَكتبِ الرَّئيسِ عندَ العَاشِرَةِ صَباحَاً، لاحظتُ تَجَهُّمَ وَجهِهِ.

.هَذهِ وَاحِدةٌ مِن أفشَلِ القصصِ الَّتِي قَرأتُهَا فِي حَياتِي.

قَالَ رئيسُ التحريرِ بِصَوتِهِ المُزعِج.

سَألتُهُ:

.هلَ أعدتَ قِرَاءَتَهَا؟

.أربعَ مَرَّاتٍ أيُّهَا الوَغد، لَم أجِد إلَّا كَلمَاتٍ مَصفُوفَة.

دَخَلت السِّكرتيرةُ وَبيدهَا بَعضُ الأوراقِ قَامَ الرَّجلُ بِتوقِيعِها وَحينَ غَادَرَت لَم أستطِعِ رؤيةَ اهتزازِ مُؤخِّرتِهَا بِسببِ الفُستانِ الفَضفاضِ فَلَعنتُ الفَسَاتِينَ الفَضفاضَة وَصَانِعيهَا ومُرتَدِياتِهَا.

خَاطَبَنِي الرّئيسُ بِحدَّة:

. لأنَّ مَكانتكَ عِندي كَبيرة سَأسمَحُ لكَ بِقراءَةِ القصَّةِ أمَامِي بِصوتٍ مُرتَفِعٍ كي تُدرِكَ كَم هِي فِي أفضلِ تَقييم، أقلّ مِن عَاديَّة.

دَفعَ بِالقصَّةِ إلي وَأشعلَ سِيجارَةً فَأشعلتُ بِدورِي وَاحِدةً وَبدأتُ القِراءة:

. رَنَّ جَرَسُ المُنَبِّهِ عِندَ السَّابِعةِ صَباحاً فَنهضتُ مِنَ الفِراشِ ثمَّ اتجهتُ إلى الحَمَّام.

تَبوَّلتُ، غَسَلتُ يَديَّ وَوَجهِي، مَشَّطتُ شَعري ثُمَّ ارتَدِيتُ قَميصِي وَبِنطَالِي.

وَضعتُ الرَّكوَةَ عَلى النَّارِ، طارت بِالقربِ مِن وَجهي ذُبابةٌ لَعينةً فَحَاولتُ قَتلَهَا وَلم أُفلِح، كَانَ نَشَاطِي فِي أدنَى دَرَجَاتِه.

بَعدَ أن شَربتُ القَهوةَ تَوجَّهتُ إلَى العَمَل.

عَانِيتُ مِن زَحمةِ الصَّباح، وصلتُ مُتَأخِّراً.. كَالعَادَة.

مَارستُ ذاتَ الرُّوتينِ المكتَبِي حَتَّى الثَّالثة ظُهراً، تَنَاوَلتُ طَعامَ الغَداءِ فِي مَطعَمٍ حَقِير.

عُدتُ إلَى غُرفَتِي ثُمَّ نمتُ وَحينَ استيقظتُ شربتُ القَهوةَ مَع سِيجَارَةٍ وَشَاهدتُ التِّلفاز.

كَانَ المَبلغُ الَّذِي أتَقاضَاهُ وَيُنَظِّمُ تَفاصِيلَ حَياتِي قليلاً فاقتَضَى مِنِّي أن أقتَصِدَ فِي كُلِّ شَيء.

غُرفَتِي الَّتِي أعيشُ فِيهَا، قَليلَة، المَسَاحَةُ الَّتِي أنَامُ فِيهَا، قَليلَة، فُسحَتِي فِي هَذهِ الحَياةِ، قَليلَة، تفاصيلُ حَياتِي كَمُواطِنٍ مِنَ الدَّرجةِ الخَامِسَةِ قَليلة.

بِاختِصارٍ، هذه قصتي .

أنهيتُ القِراءَةَ وَكَانَ الرَّئيسُ يِنظرُ بِاتِّجَاهِ السَّقفِ نَافِثَاً دُخَانَ السِّيجَارةِ وقبلَ أن يفتحَ فَمهُ قُلتُ:

.سَأضيفُ إلى القصّةِ بضعةَ أسطُر.

حَرّكَ كَتفيهِ لا مُبَالياً، وَبعدَ أن أنهيتُ الكِتابةَ قَرأتُ مِن جديد:

.بِاختِصَار، هَذهِ قصَّتِي الَّتِي قبلَ أن أكتبهَا عَلى الوَرقِ كَتبهَا اللهُ فِي دَفترِ القَدر.

أنتم تؤمنونَ بهِ أليسَ كذلك؟

إن كُنتم مثلَ رئيسِ التَّحريرِ تَعتقدونَ أن قصَّتِي سَخيفَّة، أعيدُوا التَّفكِيرَ فِي موهبتهِ.

خارجَ المكتبِ كانت تنتظرني السكرتيرة مبتسمةً وَبعدَ أن أعطتني المبلغ قالت:

.بانتظارِ القصةِ القادمة.

***

خَيمَةُ النَّخيلِ فِي بسنَادَا

حَتَّى دَخَلتُ مَرحَلةَ التَّعليمِ الثَّانَوِي، كَانَ حُلمُ حَياتِي، خَيمَة. كَي يَكونَ عِندي خَيمةٌ لَا بُدَّ أن يَكونَ عِندي سَطح، وَكَي يَكونَ عِندِي سَطحٌ لَا بُدَّ أن يَكونَ عِند أهلِي مَنزلٌ غير أننا في ذلكَ الوقتِ كنَّا نَقطنُ بيتاً مُستَأجَراً يَقبعُ فِي الدورِ الأوَّلِ مِن بِنَاءٍ بِثلاثَةِ طَوَابقٍ التَّصرُّفُ بِسطحِهِ ليسَ مِن حقِّنا.

بَعدَ ذلك، سَاءَت الأحوَالُ المَادِيَّةُ لِلوالدِ المُناضِلِ فَانتَقلنَا لِلعيشِ فِي غُرفةٍ واحِدةٍ لا يُمكنُ الصُّعودُ إلى سَطحِهَا المُزدحمِ بِالشَّقَاء. بِمُعجِزةٍ، حَصلَ أبِي عَلى تَعويضٍ مَادِّيٍّ بعدَ أن استولت إحدَى شَركاتِ الطُّرُقِ عَلَى قِطعَةٍ مِن أرضِهِ وَكانَ المبلغُ مُنَاسِبَاً لِبنَاءِ بَيت. كُنتُ حينَ أمشِي في شَوارعِ بِسنادا وأرَى خَيماتِ القَصبِ مُنتَشرَةً علَى الأسطُحِ مُزدَانةً مَساءً بِالأضوَاءِ المُلَوَّنةِ، أحزَن.

. أريدُ خَيمةً كَي أجلسَ فيهَا مَع أصدِقائِي نَشربُ المَتَّة ونستمعُ لِأمّ كُلثوم وَنحنُ نُدخِّنُ سَجَائرَ الحَمراءَ الطَّويلة فِي السِّر. هَكذَا كنتُ أقولُ لنفسِي بِحسرَةٍ.. وَأمَل. إطلَالةُ سَطحِ مِنزِلنَا الَّذِي أبصرَ النُّورَ أخيراً هِي كَمَا أخبِرُكم: أمَامنَا يَبدو البَحرُ مُمتَدَّاً رَحيبَاً مِن رأسِ البسِّيطِ إلى مِيناءِ اللَّاذِقيَّة. الجبلُ الأقرَعُ وسلسلةُ جبالِ السَّاحلِ السُّوري عَن يمينِنا وَخلفنا وَعن يَسارِنَا تَستلقِي بِسنادا سَاليةً الزَّمنَ وَعاشِقَةً نَفسهَا حَدَّ التَّصوُّف.

بسنادا..

جَنَّتِي الَّتِي لَم أكُن قَد خَرجتُ مِنهَا، بِزيتُونِهَا وَمُرُوجِهَا وَصلُولِينِهَا، بِالشِّيخِ قليعة وَأرضِ أمِّ صَلاح وَالبَيدَرِ وَالخَرنُوبِ والشُّوبَاسِ وَالحمّيضَةِ وَالكِينَا، بِكلِّ مَا يُمكنُ لِلجَمالِ أن يَتَجَسّدَ كَانَت هيَ وَكانَ هَذا فِيمَا مَضَى.

قَبلَ أن يَنقضِي رَبيعُ ذلكَ العَام، وَلأنَّنِي لَم أُطِق صَبرَاً، استَأجَرنَا أخِي مَجد وَأنَا سَيَّارةً صِغيرَةً (سُوزوكي) بِمبلغٍ وَقدرهُ (25) ليرة سُوريَّة، لِيرَة تنطحُ ليرة وَذهبنَا إلَى مَقبرةِ الشُّهداءِ حَيثُ تنتَصبُ هَناكَ أشجَارُ النَّخِيل. أوقَفَنَا الحَارِسُ وَسَألنَا عَن غَايَتِنَا فَأخبَرنَاهُ وَقَال:

.لَا تَترُكَا ورقةً يَابسة بارَكَ اللهُ بِكُمَا، أرَحتُمَانِي مِن عَناءِ جَمعِهَا.

قُمنَا بِتحمِيلِ مَا اتَّسَعت لهُ (السوزوكي) بِأورَاقِ النَّخيلِ وَعُدنَا إلى المَنزِلِ ثُمَّ عَملنَا طِيلةَ النَّهارِ فِي إرسَاءِ الدَّعَامَاتِ الخَشبيَّةِ وَتَرتيبِ السُّعفِ ثُمَّ تَثبِيتِهَا بِأسلاكٍ مَعدِنيَّةٍ نَاعِمَة.

مَع قُدومِ المَساءِ أوصَلنَا إليهَا الكَهرَبَاءَ ووضعنا فيها مسجلة وما بقي إلا أن أزَوّدَ الخَيمةَ بِسريرٍ كَي يَتحقَّقَ الحُلم.. الصَّبَاحُ رَبَاح. قُلتُ لِنفسِي فَالجزءُ الأصعَبُ مِنَ المَهمَّةِ تَم.

فِي اليَومِ التَّالِي قَالت خَالتِي عندما زارتنا ورأت ما صنعناه إنَّ الزَّاويَةَ الشّمَاليَّةَ مِن حِديقةِ مِنزلِهَا فِيهَا سَريرٌ حَديديٌّ صَدِئٌ مُلقَىً بِإهمَالٍ مُنذُ العَامِ ألفٍ وتسعمائةٍ وَخشبَة وهي ليست بحاجته.

"عَظِيم". قلتُ وفكَّرتُ سَريعَاً... لا أملكُ خَمسةً وعشرينَ ليرة كَي أستأجِرَ (سوزوكي) لِنقلهِ والَّلهفَةُ تَعصفُ بي فَقَرَّرتُ أن أحمِلهُ علَى ظَهري.

اندَفعتُ إلى مَنزلِهَا وَحملتُ السَّريرَ ثُمَّ عُدتُ أدرَاجِي. أكثرُ من ثلثِ السَّاعةِ وأنَا أسيرُ حَامِلاً كَومَة الحَديدِ تِلك.

. لا مُشكلة، المُهمُّ أن أتمَدَّدَ فَوقَكَ أيَّهَا السَّرير. اليوم سَأنَامُ فِي خيمةِ النَّخيل. مَا أن فرغتُ من إعدادِ مَكانِهِ حتَّى قُمتُ بِوضعِ طاولةٍ خشبيةٍ قَديمةٍ مُهترئةٍ كَانَ يَملكهُا القَائدُ سلوقس ثمَّ قمتُ بِتسخينِ أبريقِ المَاءِ وإعدادِ كأس المَتَّة. جَلسنَا مجد وأنا نُطالعُ البَحرَ كيفَ تَتماوجُ ألوانُهُ بينَ الأزرقِ الغَامقِ والسَّمَاوِي ثُمَّ أشعلنَا سِيجَارتينِ وفِي الأفقِ البعيدِ كَانت سَفينَةٌ تمخرُ العُباب.. أصبحَ عِندي خيمةً أستمعُ فيهَا مسَاءً لأم كلثوم تشدو..: هَذهِ ليلتِي وَحلمُ حَياتِي، بينَ مَاضٍ منَ الزمانِ وآتِ الهوَى أنتَ كُلُّهُ وَالأمانِي، فَاملأ الكأسَ بالغرامِ وهاتِ بعدَ حينٍ يبدِّلُ الحُبُّ دارا، والعصَافيرُ تهجرُ الأوكَارا وديارٌ كانت قديمَاً ديارَا، سترانَا كَمَا نراهَا قِفارَا سوفَ تلهو بنَا الحياةُ وتسخر، فتعالَ أحِبُّكَ الآنَ أكثر.

وَمساءً يَا سَادة كانَ ضوءُ المصباحِ يتَسرَّبُ عَبرَ سُعفِ النَّخيلِ ليهطلَ قُبلاً عَلى سَطحِنَا المُسوَّرِ بِأورَاقِ التِّينِ والزَّيتونِ المُتناثِرةِ حَوله.

كَانَ حُلمي جَميلاً، لَم يَكُن تَحقيقُهُ بِحاجةِ مُعجزاتٍ وهَا أنَا الآن بعد عشرين عاماً قَد غدَت أحلامِي غليظةً ومُتعِبَة، تحتاجُ السَّفرَ آلافَ الكيلومتراتِ ولا ترضى، تستَهلكُ مِن صِحَّتِي وَروحِي ونفسِي، ولا تَرضى.منذُ زمنٍ بعيدٍ لم أبني خَيمةً على السَّطح.البحرُ مَا عادَ مُطِلَّاً عَلى منزلنا كَما كَانَ في تلكَ الأيام..ارتفعت العَماراتُ الإسمنتيَّة وَحَجبتِ الرؤية. أشجارُ الزيتونِ، قَطعوها. الرِّضَا الَّذِي كُنتَ تلمسُ بَريقهُ. نَوعاً ما.فِي عُيونِ البَشرِ، مَات. أمّا أنَا.وَعَطفَاً على كُلِّ مَا سَبق.لَستُ مُقيمَاً هُناكَ إلَّا لأيّامٍ قليلةٍ بِحكمِ عَملي خَارجَ سُوريا، وأنَا الآن، أكثر من أيِّ وقتٍ مَضى، أريدُ خيمةً

على السَّطحِ يَزورُهَا البَحرُ وتزورهُ مَتى شَاءَا..وَلا أريدُ أن تلهو بِيَ الحياةُ وتَسخر.. كمَا تَفعَل ابنة الكلب.

لحنٌ سُوريٌ شَجِي

شَهدَ الجَميعُ يَومَهَا كَيفَ هَبَّت رِياحٌ عَاتِيَةٌ مِن قَلبِ الصَّحراءِ وَكيفَ تَلبَّدَ الغَيمُ المُضَرَّجُ بِالغُبارِ وَأصوَاتِ الأُمَّهَاتِ المَفجُوعَاتِ بِأبنائِهِنَّ الَّذينَ تَناولتهمُ الحَربُ كَمَا شهدَ الجَميعُ كيفَ جُنَّ جُنونُ السَّماءِ فَظلَّت تبرقُ وترعدُ لِعشرينَ سَاعةٍ دونَ توقُّف.

قبلَ مَقتلِهِ بأيَّامٍ كَانَ المِقدادُ جَالِسَاً عَلى السَّريرِ العسكَري فِي المَهجعِ الصَّغيرِ قُربِ مَدينةِ الآثارِ البَائِسَة. قَالَ سَالمٌ وَهُوَ يُراقِبُ مِنَ النَّافِذةِ الصغيرَةِ حَالة الطَّقَسِ في الخَارِج:

.هَذهِ الهدنةُ مُمِلَّة. ثُمَّ عَادَ لِيَجلسَ إلى الطاولةِ مُنتَصفَ الغُرفةِ وسَكَبَ مِنَ الإبريقِ مَاءً فاتِراً فِي كأسِ المَتَّة.

دخلَ اسماعيلُ وَصَفقَ البابَ خلفهُ درءَاً للرّياحِ القَارصةِ ثمَّ قالَ بصوتٍ جَهوري:

.كسٌّ أختِ البَرد.

.وَهل لِلبردِ أخت؟

سَألَ سَالم.

.وَهل لهَا كس؟

جَاراهُ المِقدادُ بِغمزَة.
.سخيفان.

أوقفَهمَا اسماعيلُ، ثُمَّ وَضعَ الإبريقَ فوقَ غازٍ صغيرٍ وأشعلَ النَّار، صنعَ لنفسهِ كأساً من المتةِ وضعَ فيها ملعقتينِ كبيرتينِ منَ السّكرِ وبعدَ أن أفرغَ السائلَ اللَّذيذَ في جوفهِ أشعلَ سيجارةَ حمراءٍ طويلةٍ راحَ يَعبُّ دُخانَها بِنهم.

. هل تعتقدانَ أنَّ اللهَ موجُود؟ سَألَ إسماعيلُ دونَ أن يلتفتَ إلى صديقيهِ السَّارحينِ كلٌّ في عَالمِهِ. مَضَت على خِدمَتِهم في الجيشِ خَمس سنواتٍ تنقَّلوا فيها بينَ درعَا وحمصَ وريفِ دمشقَ وخاضُوا مَعاركَ صغيرةً وكبيرةً هُم أنفسُهم لا يَعرفونَ كيفَ خَرجُوا مِنهَا أحيَاء.

. هَذهِ الحربُ اللعينةُ دَفعتنِي إلى الشَّكِّ بِكلِّ شيء. أجابَ سَالمٌ وهو يحاولُ الاتصالَ بخطيبتهِ دونَ جَدوى.

. هَل مِنَ المَعقولِ أنَّهُ كتبَ هَذا الهُراءِ الَّذي نَعيشهُ قبلَ مَلايينِ السِّنين؟ قَالَ اسماعيل مُتنَهّداً ثُمَّ أضَاف:

.كُلُّ هَذا القتلِ والظُّلمِ والخَرابِ والاستغلالِ كَتبهُ في لِوحِ القدر؟ مَا طِينَةُ هذا اللُّوح؟

لو كنتُ رَبَّاً لجعلتُ النَّاسَ يعيشُونَ في سَلامٍ بِلا أمرَاضٍ ولا فقرٍ وَلا ظُلمٍ ولا استغلالٍ ولَا حُروب. لَن يكونَ أحدٌ مِنكُم بِحاجةٍ لأنبياءٍ أو مُعجِزاتٍ وَلن أفرضَ عَليكم صَلاةً أو صِيامَاً أو أيَّ شيءٍ آخر. سَأحِبُّكُم بِلا ابتزازٍ لَكن، من سوءِ حَظِّكم، لستُ رَبَّاً.

ضحكَ المقدادُ وقال:

. شَعرتُ لِوهَلةٍ أنَّكَ تقدّمُ بَرنَامجَاً انتِخابيَّاً وَتريدُ مِنَ الجَماهِيرِ أن تصوّتَ لكَ لكن، مَن يَضمنُ لنا بعدَ انتخابكَ أنَّكَ لَن تَكونَ أسوَأ ؟ ضَحكِوا ثَلاثَتهُم حتَّى أصَابَهم السُّعَال.

. اعزف لنَا شَيئاً يا مقداد وانتَشِلنَا مِنَ هذه الكَآبةِ الإلَهِيَّة. قَالَ سَالمٌ وهوَ يَلفُّ سيجارةً طار الدخانُ منها بعدَ أن أشعلَها مُتَمَوّجَاً. بهدوءٍ أخرج العود من غِلافهِ الجلدي المُغبرِ وراحَ يدوزنُ أوتَارهُ ليحصلَ على النَّغمِ وَما هي إلا دقائقٌ حتَّى راحتِ الأصابعُ الفتيَّةُ تُداعبُ الرّيشةَ لكنَّ الَّلحنَ كانَ حَزِينَاً.

(مشتاق عليها مشتاق..)

بعدَ أيَّامٍ، حرّرَ المقدادُ ورفاقه زنوبيا من أسرِهَا الثَّانِي. هناكَ من قالَ إنَّهُ قتلَ عشرينَ داعشياً قبلَ أن ينفجّرَ لغمٌ في عربتِه وهناك من قال إنهم خمسين.

لَم يكُن يَومَاً عَاديَّاً ذاكَ الَّذي مات فيهِ المقدادُ إذ شهدَ الجميعُ كيفَ هبّت رياحٌ عاتيةٌ من قلبِ الصَّحراءِ وكيفَ تلبّدَ الغيمُ المُضرَّجُ بِالغبارِ وأصواتِ الأمَّهاتِ المَفجُوعَاتِ بِأبنَائِهنَّ وَكيفَ جنَّ جنونُ السَّماءِ فَظلَّت تبرقُ وترعدُ لعشرين سَاعَةٍ، بِلا تَوقُّف.

***

الجَائِزة

فازَت قِصَّتِي (فاعِلُ الخَير) بِالجَائِزةِ الأولَى لإحدَى المُسابَقاتِ الأدَبيَّة.

لا أنكِرُ أنَّ سَعادَتِي بِالمبلغِ المَالي لم تَكُن أقلَّ البَتَّة مِن سَعادتِي بِالتَّكريمِ الَّذِي أقامَهُ المُنَظِّمُونَ وحَضَرهُ عَددٌ غفيرٌ مِنَ المُحِبّينَ والقُرَّاء .

صحافيٌّ غَليظٌ سَألَنِي عَنِ المَالِ وَكيفَ سَأنفِقُهُ فَأجبتُ بِهدوءِ المُثقَّفين وَرَزَانَتِهم:

.أُفكِّرُ أن أتبرَّعَ بِهِ لِجَمعِيَّةٍ خَيريّة.

عادَ ليسألَ عَن اسمِ الجمعيةِ فارتَبكتُ قليلاً لأنَّ مَا مِن اسمٍ حَاضرٍ في ذِهنِي لكنَّنِي ارتَجَلت:

.أرغبُ في تقديمِ المَبلغِ لجمعيَّةِ أصدقاءِ مرضى الإنفلونزا.

الصحفيُّ اللَّعينُ لم يَدعنِي بِشأنِي فَسألَ عن نوعِ الإنفلونزا التي سَأقدِّمُ المَبلغَ لجمعيةِ أصدقاءِ مَرضاهَا .

هذهِ المَرَّة لم أرتبك وقلتُ على الفور:

. الخَنازِير، كمَا تَعلمُ باتَ المَرضُ مُتَفشِّياً بينَ البشرِ وَغَدا مِنَ الصَّعبِ التَّمييزُ بينَ اولئِكَ وهَؤُلاء.

سَكتَ الصَّحفيُّ مَرَّةً واحِدةً وَلِلأبد.

بَعدَ انتِهاءِ مَراسِمِ الحَفلِ وَتودِيعِي بِمثلِ مَا استُقبِلتُ بِهِ من حَفاوةٍ وَتقديرٍ، خَرجتُ مِنَ المركزِ الثَّقافيِّ وبدأتُ السَّيرَ بعدَ أن أشعلتُ سِيجَارَة .

قلتُ لِنَفسي :

. إنَّهَا المَرَّةُ الأولَى الَّتِي أتَقاضى فيهَا مبلغاً كهذا وَرُبَّمَا ليسَ مِنَ الخَطأ أن أتبرعَ بِهِ لِصالحِ إحدى الجَمعياتِ النَبيلة.

عندمَا أصبحَتُ بِالقربِ مِنَ المَطعمِ تَذكَّرتُ أنَّنِي جائِع.

بِصراحَة، أنَا لو لَم أكُن جَائِعَاً مَا أن استَنشِقَ عَبيرَ الشَّاورمَا حتى يَنتَابنِي الجُوع.

طَلَبتُ ثَلاثَ سندويشاتٍ أجهزتُ عَليهَا في أقلَّ من عشرِ دَقائقٍ ثمَّ تَابعتُ السَّير.

فِكرةٌ أُخرَى رَاودَتنِي وأنَا أعبرُ حَديقةَ المُواطَنةِ المُجاورَة لقِصرِ العَدلِ فِي مَدينَتِنَا الحَبِيبَة.

.لِمَاذَا لا أتَبرَّعُ بِالمبلغِ لِدارِ الأيتَامِ وَالمسَاكِين؟ سَيفرحونَ .لا شكَّ .يهدِّيَّنِي .

ابتَسَمتُ رَاضِيَاً عَنِ الفِكرةِ لكنَّ واحدةً أُخرَى هَاجَمتنِي وأنَا أعبرُ شَارعَ الوِفَاقِ الأهلِي.

.ربَّمَا كَانَ مِنَ المُناسبِ أن أقدِّمَ المَبلغَ لإحدى المُستشفيَات.

وَافَقتُ نَفسِي عَلى الفَورِ فَالمُستَشفَيَاتُ بِحاجةٍ لِدعمِنَا نَحنُ أصحَاب المَالِ وَالجَاه.

وفي طريقي خَطَرت لي عَشَرَاتُ الأفكَارِ الخَيريّةِ حَتَّى وَصلتُ إلَى الحَانَة.

اتَّخَذتُ مَكَانِي فِي رُكنٍ ذِي إضَاءَةٍ خَافِتَةٍ وَطَلَبتُ مِنَ النَّادلِ زُجَاجةَ نَبيذٍ مُعتَّقٍ وَصَحناً مِنَ المُكسَّراتِ المُمَلَّحة.

اقتَرَبَت مِنّي فَتاةٌ عِشرِينيةٌ ذَاتُ شَعرٍ حَالكٍ وَعَينينِ تَنفُثانِ لَهَبَاً، لَهَا شَامَةٌ عَلى فَخذِهَا الأسمرِ الكَارِهِ لِلثّيابِ وأمَّا شَفتَاهَا فيَا ويحَ قلبي.

قَالَت:

.لمَ أنتَ وَحيد؟

قُلتُ وَالكأسُ فِي يَدي:

.لأنَّكِ تَركتِنِي وَحِيدَاً.

فمَا كانَ مِنها إلَّا أن قَهقَهت بِطريقةٍ تُجبرُ أعتَى اللَّامُبالِين عَلى الوقُوفِ احتِرَامَاً ثُمَّ قَالت وهي تلوّحُ لِصَدِيقَتِهَا:

.لَا تَخَف يَا صَغِيرِي، لَن أترُكَكَ وَحِيدَاً بَعدَ الآنِ إن كَانَ بِحَوزَتِكَ مَا يَكفِي مِنَ المَال.

اقتَرَبَت صَدِيقَتُهَا الَّتِي لا تَقلُّ عَنها فُجوراً ثمَّ راحتَا تَتَهَامسَانِ وَفي هذهِ اللحظةِ بالذّاتِ تَذكَّرتُ أمَراً غايةً في الأهميّة.

مَاذا لو افتَقدَنِي الرَّبُّ دونَ أن أكونَ قد مَارستُ الجِنسَ مَع امرَأتِينِ في نفسِ الوَقت.

مِمَّا لا شكَّ فيهِ، سَأكونُ حَزينَاً.

حينَ اقترحتُ الفِكرةَ عَلى السِّيدتينِ لم تُمانِعَا خَاصَّةً عندَمَا عَرِفَتَا أنَّ مَبلَغَاً إضافيَّاً سَأقدِّمُهُ لهُمَا إن مَارَسَتَا السُّحاقَ أمَامِي.

فِي طَرِيقِ عَودِتنَا إلى غُرفَتِي عَبرَ شَارِعِ السَّلامِ وَالوئامِ الحُكومِي رَاوَدَتنِي فِكرةٌ عَظيمَة.

سَأشترِكُ فيمَا بَعد بِمُسابقةٍ أدبيّةٍ أقدُّمُ فيها قصَّتِي (المُحسِنُ الطَّيب) وَمَن يدرِي حينَ أفوزُ بالجائزةِ كَمِ امرَأةٍ سَأصحَبُ إلَى الغُرفَة.

***

حَدَثَ فِي سُوريا ذاتَ حَرب

عَلى سَريرٍ أبيضٍ كَانَ العَجُوزُ مُمَدَّداً بعدَ أن وجَدَهُ رَجُلانِ غَريبانِ خَائرَ القُوى قُربَ مَخبزٍ مَهجورٍ ثمَّ أسعفاهُ إلى المُستشفى.

حينَ لاحَظتِ الطَّبيبَةُ المُنَاوِبَةُ أنَّ مَا مِن أحَّدٍ زَارَهُ تَسَرَّبَ إلى قلبِهَا عَطفٌ مُضَاعَفٌ فَرَاحَت تَهتمُّ بهِ أكثر .

بِالقُربِ مِن سَريرِهِ وَضعَت مَزهريَّةً ضَمَّت باقةً جميلةً مِنَ الوَردِ ثمَّ بَدأت تَعتنِي بِنظافتهِ فتمسحُ قدميهِ وجسده بقطعةِ قماشٍ مُعقَّمةٍ ريثمَا يَصحو مِن غيبوتهِ التي دخلت يَومَهَا الخامِس .

عصرَ اليومِ التالي، وبينمَا كَانَت تَقيسُ له الضَّغطَ فتحَ الكَهلُ عينيهِ ونطقَ كمَخمُورٍ ثَلاثةَ أسماءٍ لِيغرقَ في غَيبوبَتهِ من جديد.

مساءً، الطبيبةُ الشَّابةُ رأتهُ وهوَ يُدخِّنَ سِيجارةً طَلبَهَا مِن أحَّدِ زوّارِ المَرضى.

تَدَخَّلت مُحاوِلةً إيقافَهُ لَكِنَّها لم تُفلح.

عرَّفتهُ بِنفسِهَا ثمَّ شَرَحت تَفاصِيلَ مَا حَدث.

.أمَا مِن أبناءٍ أو أهلٍ يزورُونَكَ يَا عَم؟

سَألت بِحَسرةٍ.

انحنَى لِدَقيقةٍ في جَلستَهِ شَابِكَاً يَديهِ فَوقَ رأسِه.

.أولادي مَعي.

قالَ قبلَ أن يُخرجَ من جيبِ مِعطفِهِ المُهتَرِئِ ثَلاثَ أورَاقٍ نَعِيّ وَراحَ يقرأ:

-الشَّهيدُ محمد، الشَّهيدُ فاطر، الشَّهيدُ قيس.

وبَعدَ دَقيقةِ صَمتٍ، أضاف:

.أحتاجُ سِيجَارةً ثانيةً أرجُوك.

مُذ دَخلَ العَجوزُ المَشفَى وَحيداً أحسَّت بِمَشَاعِرٍ غَامِضَةٍ نَحوَهُ وهَاهيَ تكتشِفُ الآنَ أنَّهُ أبٌ لِثَلاثَةِ أموَات.

.أيُّ جَحيمٍ هَذا الَّذِي أرسَلنَا اللهُ إليهِ قبلَ الحِسَاب!

قَالَت لِنفسِهَا وَرَغمَ مُحاوَلتِهَا البَائِسة فَشِلت فِي المُقاومةِ وانفجَرت بُكاءً.

صَارت تَعتنِي بهِ أكثر.

أحضَرت لهُ الطعامَ مِن مَنزِلِهَا واشتَرت لهُ ملابسَاً جَديدَة.

المَزهريَّةُ الَّتِي وَضَعت فيهَا بَاقةَ الزَّهرِ كَانت تُجدِّدُ مَاءَهَا كُلَّ صَباح.

بَعدَ ثَلاثةِ أسابيعٍ مَاتَ.

كانَ صَباحَاً غائِماً حينَ دخَلت غُرفَتهُ لتَطمَئِنَّ كَالمُعتادِ عَليه.

أزَاحَتِ السَّتَائرَ لِيدخلَ الضَّوءُ وَسَعلت أكثرَ من مَرَّةٍ لِتُنَبِّهَهُ لكِنَّهُ لَم يَستيقِظ.

اقترَبت أكثر.. وأكثر، رَاقَبَت تَنفُّسَهُ، لَا شَيء.

فارقَ العَجوزُ الحَياةَ وَيَداهُ قَابِضَتَانِ عَلى الأوراقِ الثَّلاث.

فَوقَ شَفتيهِ، ثمَّةَ ابتِسَامَةٌ غَامِضَة تَركَها كَآخرِ كِلمَاتِ الشُّكرِ لَهَا.

حَدثَ هَذا فِي سُوريَا ذَاتَ حَرب.

***

لوحَةٌ غَريبَةٌ على جِدارِ كَهف

فِي الشَّمالِ مِن قَريَتِنَا النَّائِيةِ غَابَةٌ عَظيمةٌ أطلقَ عليها الأهالي منذُ زمنٍ بعيدٍ اسمَ (المَجنُونَة).

تَقولُ الحِكايةُ إنَّ مَن كانَ يذهبُ إليها لصيدِ الغزلانِ والأرانبِ والخنازيرِ البريّةِ سَمعَ نِدَاءَاتٍ وأصوَاتٍ مَجهولةٍ أدَّت مَع مرورِ السِّنينِ إلى الانقِطَاعِ عَن زيارتِها نِهائياً.

صَباحَ يومٍ غائمٍ قرّرتُ أن أواجِهَ الخَوفَ الجِينِي الَّذِي تَوَارثنَاهُ فَقصَدتُهَا.

خلالَ الساعةِ الأولى لم ألحَظ ما يَستَرعِي الانتِباهَ سِوى بعضِ الحَركشَاتِ الَّتِي تُصدِرُهَا حَيوانَاتُ الغَابةِ، فَقَط.

أشعَلتُ سِيجَارةً وأكمَلتُ طَرِيقِي أتأمَّلُ العَالمَ العَجيبَ حَولِي وفِي قلبِي، خَوف.

ذاتَ مرةٍ قالَ لِي أبِي:

. جَميعنَا نَخاف، ليسَ هذا ما يُحدِّدُ مَاهيتكَ، طريقةُ مُواجَهتِكَ للخوفِ هِي مَن تَفعل.

رهبةُ المكانِ وخلوّهِ من أيّ أثرٍ لِكائنٍ بَشَري زَادَا مِن جَزعِي لكنَّني حَزمتُ أمرِي.

تَابَعتُ المَشي رويداً رويداً وأخيراً..سَمعتُهُ.

صوتٌ ما مرَّ عليَّ مثلهُ من قبل.

تَلفَّتُّ يَسَاراً فإذَا بِكهفٍ مُستَتِرٍ خَلفَ دغلٍ قَريب.

أمامِي خَيارَان..الهروبُ والعَودَةُ إلى القريةِ مع جيناتِ الفزعِ مُضاعفةً أو دخولُ الكَهف.

رُحتُ أفكِّر:

.سَيُلاحِقكَ الصَّوتُ بَقيةَ حَياتكَ، سَيأكلكَ النَّدم.

تَقدَّم لَعلَّكَ تَعرف.. ادخل الكَهف.

دَخَلت.

الصَّوتُ وَاضِحٌ لكنَّني لم أجِد أحداً..

وَحدَهَا جُدرانُ الكَهفِ المُعتمِ تنزُّ قَطراتٍ كأنَّهَا دُمُوع..

فِي آخرِ الكَهفِ حيثُ الصَّوتُ أقوى وأوضح رسمٌ عَلى الجِدار..

.أيُّ فنانٍ رسمَ هذهِ الأنثى السَّاحِرة؟

مَا أجمَلَها..

تَسمَّرتُ مَكانِي مَذهُولاً بِروعَةِ مَا أرَاهُ ثُمَّ فَجأة..

انشَقَّ جِدارُ الكَهفِ بِوميضٍ لَم تستَطِع عَينايَ مُقاوَمتَهُ وَخَرجَتِ المَرأةُ منهُ بِكامِل أنُوثَتِهَا وفِتنَتِها..

تَقُولُ الحِكَايَة..

لَم يَرني أحدٌ مِن يَومِهَا على الرَّغمِ مِنَ البَحثِ الَّذي امتدَّ شُهورَاً لِكنَّ الصَّوتَ الَّذي كَانَ يَسمعُهُ النَّاسُ فِي الغابةِ تَوقَّفَ نهائياً.

عادَ أهلُ القريةِ لزيارَتِهَا والصَّيدِ أو التَّنزُّهِ فيهَا.

عِندمَا يَدخُلونَ الكَهفَ يَقفُونَ دَائماً فِي ذهُولٍ أمَامَ لوحةٍ غَريبَةٍ على جِدارهِ لِرَجُلٍ وامرَأةٍ.. مُتَعَانِقَين.

***

الطريقُ إلى دِمَشق

إنَّهَا الثَّانِيَةُ فَجراً وَالسَّيَّارَاتُ فِي الشَّارِعِ المُبَلَّلِ بِمَاءِ المَطرِ قَليلَةٌ جِدَّاً.

يَكَادُ سَائِقُ سَيَّارَةِ الأُجرَةِ يَصلُ بِنَا دَوَّارَ اليَمنِ لِيتَّجِهَ نُزُولاً صَوبَ كَراجِ (البُولمَانَات).

كُنَّا صَامِتَينِ أمَّا سُعاد محمَّد عبرَ أثيرِ الإذاعةِ لم تكن..

.أوعِدَك فِي كُلّ مَكان وفي أيّ زمَان نِفضل حبايب..

المَحلَّاتُ وَالأكشَاكُ المُجاوِرة لِلكرَاجِ جَميعهَا مَفتُوحةٌ، فِي هَذا الوَقتِ المُتأخِّرِ عَددُ المسافرينِ إلى بقيةِ المُحَافظاتِ السُّوريَّةِ قليلٌ جِدَّاً.

.عَ الشَّام بتلات سَاعات.. عَ الشَّام بتلات سَاعات.

.عَ حلب أخوي.. ع حلب هلأ طَالعين.

هَكَذا يُنَادِي مُساعِدو السَّائِقِين وَأنتَ تَمرُّ قربهم.

تَوجَّهتُ مُباشَرةً إلَى مَكتبِ الشَّركةِ التِي أسَافرُ معها دَائمَاً وَابتعتُ تَذكرةً إلى دِمشق.

أخذَ الرَّجلُ الجَالِسُ خَلفَ المكتبِ بِطَاقتِي الشَّخصيَّة ثُمَّ سجَّلَ على الورَقِ أمَامَهُ اسمِي وَرقمَ البِطاقَةِ وَقال:

.خَمسُ دَقائقٍ وَننطَلِق.

بَعدَ خَمسِ دَقائقٍ لَم نَنطَلِق، انطَلقنَا بَعدَ نِصفِ سَاعةٍ دَخَّنتُ خِلالَهَا أربَعَ سَجَائِر.

كَأنَ مُعظَمُ الرُّكَّابِ مِنَ الذُّكورِ وَفي المَقاعدِ الأمَاميةِ بِضعُ سيّدَات. مَا أن اجتازَ البُولمَان مَدخلَ اللَّلاذقيةِ حَتَّى بَدأ المُعاونُ بِتوزيعِ أكوابِ المَاءِ وَبعضِ القطعِ مِنَ الحَلوى عَلى المُسَافِرين.

فِي مِثلِ هذا الوقتِ تَكونُ الرِّحلَةُ مُريحَةً إذ لَستَ مُضَّطرَّاً لأَن يُصبحَ كتفكَ وِسادَةً للشخصِ النَّائمِ إلى جِوارِكَ كونهُ غير موجودٍ والأهمُّ مِن هَذا أنَّكَ لا تَكونُ مُرغمَاً على المُجَامَلةِ وَمُجارَاةِ الأحاديثِ التَّافِهَة.

بِمُحَاذاةِ مَدينةِ جبلة تَقريبَاً يَبدأ عَرضُ الفيلم.

خِلالَ رَحلاتِي الكَثيرةِ إلى دِمشق حِينَ كنتُ طَالبَاً فِي كُلِّيَّةِ الإعلامِ شَاهدتُ فِيلمَ (حَنفي الأبَّهة) أكثرَ من عِشرينَ مَرَّة.

عادل إمام وفاروق الفيشاوي يَهزمانِ كُلَّ العصاباتِ فِي مِصر والسُّودان وأريتيريا وجيبوتي، ومَع نهايةِ الفِيلم يعيشُ الجَميعُ سُعدَاء.

مِصفاةُ بانياس كَبيرةٌ جِدَّاً وضَروريةٌ جِدَّاً، لكنها قاتلة.

ها هي تبدو عبرَ النافذة بأضوائها الحمراء المتناوبةِ الشعاع.

أغفُو قَليلاً وَعندمَا أستيقظُ نَكونُ قَد عَبرنَا طَرطوس..

أتَمَطمَطُ فِي مَكانِي، أفركُ سَاعِدي بِقسوَةٍ كَما يَفعلُ مُدمِنو المُخدَّرَات، أحتَاجُ أن أدَخِّنَ لكنَّ القَانونَ لا يَسمحُ وَعَليَّ انتِظَارُ استراحَة حمص كَي أفعَل.

أحَاولُ أن أتبينَ مَلامِحَ الفتاةِ الجَالسةِ فِي المَقعدِ الأمَامِي، الفتاةُ ذاتُ الشّعرِ الأسودِ المُسترسلِ لكنَّني لا أستَطيع..

فِي الخَارِجِ تبدأُ أشجَارُ السَّرو وَالصَّنوبرِ المَائلةُ بِالظُّهور، أيَّةُ رياحٍ عنيفةٍ تلكَ الَّتِي كَادَت تقتلعُ هذهِ الأشجَار؟

أخيرَاً.. وَصلنَا، أندفعُ إلى الاستِراحةِ وأطلبُ صَحنَاً كبيرَاً مِنَ الحَلاوةِ بجبن، أجلسُ إلى طاولةٍ خاويةٍ وألتهم..

فِي أغلبِ القصصِ سَتعثرُ على مُصادفَةٍ جَمعتِ البَطلَ بامرَأةٍ خِلالَ السَّفر، فِي قصَّتِي لَن تَفعَل.

المَرأةُ تَقرأُ لغةَ العيونِ بِمهارةٍ لِهذا تَعرفُ مِن أوّلِ نظرَةٍ أنَّني أرغبُ فِي مُضَاجَعَتِهَا فَقط.

طبيبةٌ، مهندسةٌ، عالمةُ ذرَّة، مُعلِّمةُ مدرسة، عَاطلةٌ عَنِ العَمل، مُوظَّفةٌ فِي مُؤسَّسةٍ حكوميَّةٍ، مُوظَّفةٌ في مُؤسَّسةٍ خَاصَّة، ربَّة مَنزِلٍ.. إلخ.. إلخ... إلخ... لا يَعنِينِي ذلك.

طَبعاً أشَجِّعُ النسَاءَ علَى الارتِقاءِ دَائمَاً لنيلِ أعلَى المَراتبِ وفِي حَالِ تَرشَّحَت امرأةٌ جميلةٌ إلى منصبِ رئيسِ الجُمهوريَّةِ سأكونُ أوَّلَ المُصوِّتينَ لَها، لَكنَّ كلَّ ذلكَ لا يَعنِيني.

تَعنِيني الشِّفاهُ العَسليَّة، الحَلَمَاتُ الزَّهريَّةُ، الأفخَاذُ الطَّريَّة، الأصابِعُ الأرستقراطيَّةُ الطَّويلة، وَمن دونِ أيّ شكٍّ، المُؤخِّراتُ النَّاعِمَةُ الَّتِي تَرتَجُّ فوقَ الفِرَاشِ، نُقطَة انتَهى.

لِنكَن صَريحِين، المَرأةُ تَحتَاجُ مِنَ الرَّجلِ إلَى النظَراتِ الَّلطيفةِ والكَلامِ المُنمَّقِ، الصَّبر، المُدارَاة، المُراعَاة، الاجتِهاد، المُواظبَة، الإخلاص، وعدة مِئاتٍ مِن الصِّفَاتِ اللطيفةِ الأخرى، عِندمَا تَنجحُ كَرجُلٍ فِي الكَذبِ حولَ امتلاكِكَ جميعَ أو أغلبَ المُواصَفاتِ المَطلوبَةِ ستميلُ إليكَ المَرأة.

أنَا، كُنتُ ومَا زِلتُ، فَاشِلاً فِي الكَذبِ، لَهذا السَّببِ العَميقِ والأسَاسِي، كنتُ أجلسُ في استراحةِ حمص وغيرهَا من الاستراحَاتِ العامَّةِ وحدي أتناولُ الحَلاوة بجبن وأوشكُ على تَناولِ الصَّحنِ والشَّوكة.

خرجتُ حَامِلاً فنجانَ القهوةِ الذِي ابتعتُهُ إثرَ مَجزرةِ النَّهمِ ورحتُ أدخِّنُ أوّلَ سيجارةٍ بعدَ سَاعتينِ مِن السَّفرِ وأرتَاح.

أصعدُ الحَافلة قُبيلَ انطلاقِهَا حَيثُ الدِّفءُ، تُغلَقُ الأبوَاب، نمضِي في الطَّريق.

إنَّهَا الخَامِسَةُ إلا ربع فجراً.. ما زالَ العتمُ طَاغِيَاً.

أحَاولُ أن أغفو مُجدَّداً فتقولُ نَجاة كَما لو أنَّهَا دخَلت بينَ الصَّحو والحُلمِ..

.فِي السَّفَر.. بَشوفَك فِي المِسَا مَرسُوم عَ النُّجوم.. عَلى نِهاية يُوم.. على بِداية يوم.

ثُمَّ أستيقظُ مَع إشرَاقةِ فَجرٍ جَديد..

دِمشقُ عَلى الأبوَاب، أستطيعُ رُؤيتَهَا كَما يَرى البَحَّارُ جَزيرةً فِي الأُفق، استطيعُ ضَمَّهَا وَشمَّهَا والمَشي لِسَاعَاتٍ وسَاعَاتٍ في تلكَ الشَّوارعِ الأسطوريَّة، أستطيعُ أن

أرَاها فَاتنَةً كَمَا كَانَت قبلَ الخَرَاب، كَمَا هيَ الآن . رَغمَ كُلِّ شيءٍ . كَمَا سَتكُونُ أبدَ الدَّهرِ.

أرَاهَا كيفَ تنهَضُ وَتغمُرُ الصَّباحَ..

(مَرحَباً يَا صَبَاح).

***

كأسٌ مِنَ النبيذِ لِلشَّخصِ الغَريب

لِوهلةٍ ظَنَنتُ أنَّ مَا حَدثَ مُجرَّدُ خَيَال.

كَانَ المَطَرُ غَزيراً في الخَارج وعبرَ زُجَاجِ النَّافذةِ لم أستَطِع رؤيةَ شيءٍ بسببِ الظَّلامِ الحَالِك .

لا كَهرباء لِأُنِيرَ المِصبَاحَ فهيَ غالباً مَا تكونُ مَقطوعَةً في هذا الجزءِ المُهمَلِ مِنَ المَدينة.

الحَربُ والكَهرباءُ كالمَاءِ والزيتِ، لا يَجتَمِعَانِ... إلَّا بإذنِ الحُكُومَة.

أشعَلتُ شَمعَةً لَكنَّنِي رَغمَ ذَلك.. لَعنتُ الظَّلام.

أنهَكَنِي المَلَلُ فاستَعنتُ بِمَا تَبقَّى مِن شحنٍ فِي هاتفِي وَبعدَ بَحثٍ في ذاكِرتهِ الموسيقيةِ تَوقَّفتُ عندَ تُحفةِ بيتهوفِن التَّاسِعة.

جَلستُ إلى طاوِلَتِي وأمَامِي دفترٌ قديمٌ ثمَّ أشعلتُ سيجَارةً وَبدأتُ الكِتَابة.

انهمَرتِ الكلِمَاتُ غزيرةً وارتَسَمَت على السُّطورِ قصَّةً جيّدةً وَكَنِهايَةٍ مُناسبةٍ ارتأيتُ أن يُلاقِي بَطَلُهَا حَتفَهُ عَلى يدِ امرأةٍ جميلةٍ بعدَ أن يلفظَ أنفاسَهُ الأخيرةَ فوقَ صَدرِها العَارِم .

ضَربَ هزيمُ الرَّعدِ بقوَّةٍ واشتدّتِ العَاصِفَةُ فَاتَّجَهتُ صَوبَ المَطبخِ كي أسكبَ لِنفسِي كأسَاً مِنَ النَّبِيذ.

.اِجعَلهُمَا كأسِين.

قالَ صَوتٌ رَخِيمٌ خَلفِي فَتَسَمَّرتُ مَكَانِي.

لِسَاعَاتٍ خِلالَ هذا الّليلِ البَهِيمِ لَم أسمَع سِوى صَوتِ السُّحاقِ الَّلذيذِ بينَ الرّياحِ العَاتيةِ والأشجَار..

تَمَلَّكَنِي الرُّعبُ فَخَشِيتُ التَّطَلُّعَ لكِنَّنِي استجمَعتُ مَا تَبقَّى مِن عَقلِي وَشَجَاعتِي .

عَلَى سَرِيرِي جَلسَ رَجُلٌ وَسِيمٌ فِي مُنتَصَفِ العُمرِ يَرتدِي مِعطَفاً رَمَادِيَّاً وَبيدهِ سيجارة.

رَاحَ يَرمقنِي بِنظَرَاتٍ قَرأتُ فيها الحُزنَ والعَتبَ والغضبَ ثمَّ قالَ مُشيراً بإصبَعيهِ:

.اجعَلهُما كَأسين .

الَّلعنةُ، كيفَ سَأفَسِّرُ لنفسِي مَا يَحدث؟

تَسَاءلتُ بِحيرةٍ وَقلق:

.هَل أَزِفَت سَاعةُ الرَّحيلِ إلى العالمِ الآخر؟

هَل استفقَدَنِي الرَّفيقُ الأعلَى فِي هذهِ الَّلحَظَات؟

أرجوكَ أيُّها الشَّخص، لا تَكُن مَن أعتقدُ أنَّكَ هو فمَا زالَ الوقتُ غيرَ مُناسِبٍ للرَّحيلِ وهناكَ الكثيرُ مِمَّا يَجِبُ القيام به .

نَاولتُهُ كأسَ النبيذِ بينمَا كَانَ غَارِقاً فِي نوبةٍ جُنونيةٍ مِنَ الضَّحِك.

.هل أنتَ خائفٌ؟

قالَ ثمَّ كَبعَ مَا فِي الكأسِ دفعةً واحِدة.

بَلعتُ رِيقي ثمَّ أشعلتُ سيجارةً بعدَ أن هدأ روعِي قليلاً وقلت:

. كنتُ جَالِساً وَحدِي ثمَّ ظَهرَتَ مِنَ العَدمِ وطلبتَ كأسَ نبيذٍ، هل أنَا خَائفٌ؟

يَا لهُ مِن سؤالٍ عَبقري!

أجَل أنَا خائفٌ فقد حَسِبتُكَ رسولَهُ إلى الجَحِيم، ألَن تُخبرنِي مَن أنت؟

ابتسمَ الغريبُ بِسُخريةٍ ثمَّ قال:

.عَجِيبٌ أمرُكَ، تَخَافُ مِمَّا كُنتَ سَتفعلهُ بي! ظَنَنتُكَ أشجَع.

صِحتُ بِغَضب:

.مَا الَّذي كنتُ سأفعلهُ وأنَا لم أرَ وجهَكَ مِن قبل؟

نهضَ الرَّجُلُ عَنِ السَّريرِ ثمَّ خَطَا حَامِلاً كأسَهُ باتِّجاهِ النَّافذةِ وقالَ بعدَ أن توقَّفَ أمَامَهَا:

.قبلَ قليل، كنتَ سَتقتُلنِي بيدِ امرأةٍ جَميلةٍ راسَمَاً لِي مَصِيراً لَم أختَرهُ كَي تُرضِي غُرورَكَ وعنجَهِيَّتكَ ورغبَتكَ في أن تكونَ لِقصَّتكَ نِهاية مُشوِّقة، أوَتَعتقدُ أنَّكَ تَملِكُ الحَقَّ بِتحديدِ مَصيرِي لِمُجرَّدِ أنَّكَ خَلَقتَنِي؟

بَرقٌ ساطِعٌ وصَلَ السَّماءَ بِالأرض.

هدأَ عَصفُ الرِّياحِ وفِي البعيدِ بدأت أَصابعُ الضَّوءِ تَلوحُ مِن بينِ الغيومِ الدَّاكنة.

اختفَى الشَّخصُ الغَريبُ كمَا ظهرَ، فجأة.

لِوهلَةٍ ظَنَنتُ أنَّ ما حَدثَ مَحضُ خيالٍ لكنَّ كأسَاً فارِغةً مِنَ النَّبيذِ علَى حافةِ النَّافذةِ قالَت غيرَ ذلك.

***

شارِعُ الأمريكان

كانتِ اللّاذقيةُ في ذلكَ الزَّمنِ أجمَل.

عبرَ نافذةِ (السِّيرفيس) المتَّجهِ مِن بسنادا إلى الشيخضاهر تَستطيعُ أن تَرَى وجوهَ الناسِ وقد كَسَاها شيءٌ مِنَ الرِّضا.

.بوقا لو سَمَحت.

يقولُ راكبٌ فيبطئُ السَّائقُ النَّشوانُ بأغنيةِ عادل خضور من سرعَتِهِ ثم يقفُ تماماً. يمدُّ يدهُ إلى الخلفِ كي يأخذَ الليراتِ الخمسَ ثمَّ يواصلُ طريقهُ وهو يُدَندِنُ..

.يا عَشِيري ويا غالي ..

أمَّا بقيةُ الرُّكابِ فكلٌّ سارحٌ في عَالمِهِ ريثمَا يصل مَكانَهُ المَنشُود.

كانَ النسيمُ مُشبَعاً بعطرِ الرَّبيعِ السَّاحرِ وأشِعَّةُ الشَّمسِ تُداعبُ الكوكبَ كامرأةٍ مغناجٍ تريدُ ولا تريدُ بينما تسبحُ غيماتٌ ناصعةٌ هنا وهناكَ في أرجاءِ السَّماء.

أعطيتُ السَّائقَ أجرَتهُ ونزلتُ بالقربِ من ساحةِ الشيخضاهر ثمَّ مَشيتُ باتِّجاهِ شارعِ 8 آذار بعدَ أن أشعلتُ سيجارةً مَنحتنِي شيئاً من السَّعادِة .

.أحياناً.. تكونُ السَّعادةُ أبسَطَ ممّا نتخيَّل.

باستثناءِ الأبراجِ التي شاهدتُها في بعضِ الأفلامِ الأجنبيةِ التي اعتادَت بثَّهَا القناةُ الثانية، كانت بنايةُ الأوقاف المؤلَّفةُ مِن خمسة عشر طابقاً أعلى مبنىً رأيتهُ في حياتي .

تعمَّدتُ المَشي فمَا زالَ أمامِي مُتسعٌ من الوقت.

مررتُ بشارعِ الأمريكانِ على مَهل.

شارعُ الأثرياءِ الذينَ يقطنونَ عَالمَاً مُختلِفَاً عن عَالمِنا في تلكَ القريةِ الصغيرة.

يا للنساءِ الَّلواتِي يَتخايَلنَ في شارعِ الأمريكان بكامِلِ أبَّهَتِهِنَّ وشَبَقِهِنَّ.

يومَاً مَا سَأمتلِكُ المَالَ الكافِي لِمُضَاجَعتِهِنَّ جميعاً، يوماً ما.

دخلتُ الزُّقاقَ اليمينِي فطالعتنِي شجرةُ ياسمين كبيرةٌ مُعرِّشةٌ على بوَّابةٍ حديديَّةٍ تَتَقَدَّمُ البيتَ الذي أقصده.

كانَ منزِلاً رائِعاً مَبنيَّاً على الطرازِ القديمِ ومؤلَّفاً من طابقين، أمامَهُ حديقةٌ جميلةٌ استطعتُ أن ألمحَ من فوقِ السورِ الحجريّ الذي يحيطُ بها بعضَ أشجارِ الإيكيدينا والتين.

قرعتُ الجرسَ ثم أشعلتُ سيجارةً ورحتُ أتلفَّتُ حولِي كي أتعرَّفَ أكثرَ على المكانِ الظَّريف.

فُتِحَت البوَّابةُ وخرجَ منها رجلٌ طويلٌ مُمتلئ الجسمِ أصلعَ الرأسِ عيناهُ بُنيَّتانِ وذو أنفٍ مُدبّبٍ كرأسِ سَهم.

.فلانٌ؟

.ما غيره..

أجبتُ بابتسامةٍ مُصطنعة.

.متى ترغبُ البدءَ في العمل؟

.الآن إن كانَ هذا مُناسِباً لك..

.مُتحمِّسٌ؟ جيّد، أحبُّ أن يكونَ العاملُ نَشيطاً.

.أينَ المَحل؟

.أشارَ باتجاهِ تسعةِ أمتارٍ شرقَ المكانِ الذي نقفُ فيهِ فمَا كانَ مِنّي إلّا أن فتحتُ فمِي وأرخيتُ بيضي كما يُقال .

لاحظَ الرَّجلُ اندهاشِي فارتبكَ قليلاً قبلَ أن يسألَ عن سرِّهِ.

اكتفيتُ بالنَّظرِ صوبَ المَحلِّ المكتوبِ على بابهِ الأخضرِ بخطِّ كبير..

.فروج حيٌّ ومُنظف.

أمامَ البابِ، وُضِعَت الأقفاصُ الصّفراءُ التي يَحبسونَ داخلها الدَّجاج الحيَّ غيرِ المُنظَّف.

.هذا هو العَمل؟ سَألتُ بِبلاهة.

.عن أيِّ عملٍ تَتحَدَّث؟

أجابَ الرجلُ ببلاهةٍ أيضاً ..

.قصدتُ أن العملَ يتضمنُ ذبحَ الدَّجاج؟

.وما الذي كنتَ تتوقَّعهُ؟

. أفهمني صديقُ والدي الذي أرسلني إليك أن العملَ في محلٍّ لبيعِ سندويتشاتِ الدجاجِ وتوقّعتُ أن أقومَ بِتجهيزِ هذه السندويتشات وتقديمِها للزبائنِ فقط.

قهقهَ الرجلُ ثمَّ قال:

. أبداً، كلُّ ما عليكَ فعلهُ هو أن تذبحَ الدَّجاجةَ ثمَّ تضعها في آلةِ نتفِ الرّيشِ وتقطيعها إن لزمَ الأمرُ.. فقط.

.يا سَلام ..فقط!

يا رجل، ذاتَ يومٍ اصطدتُ سَمكةً بسهمِ بندقيةِ الصّيدِ المائيةِ وإلى اليومِ ما زلتُ نادِماً.

لا أنكرُ أنَّني ممتازٌ في التهامِ الدَّجاجِ المَشوي والشاورما لكنَّ الأمرَ مختلفٌ كلياً عندما يتعلقُ الأمرُ بتحويلِ الدَّجاجِ إلى هذهِ الصّيغة.

لن آخذَ من وقتكَ أكثر، كانَ سوء تفاهم.

قفلتُ عائداً وقد تأجَّلَ مشروعُ العملِ، سأبقى فقيراً إلى حين.

وليَكُن، لن أذبحَ الدَّجاجَ كي أحصلَ على النقودِ أبداً.

رحتُ أسخرُ من نفسِي وأنا أمرُّ في شارعِ الأمريكانِ من جديد.

يا للنساءِ اللواتي يعبرنَ الأمريكان بكامِلِ أبَّهتِهنَّ وشَبقِهِنَّ. يا لتلكَ الأجسادِ.. يا للسَّماء..

يومَاً مَا.. سأمتلكُ المَالَ الكافِي لمُضاجَعتِهنَّ جميعاً..

يوماً مَا..

أثرُ الفَرَاشَة

تَلَقَّيتُ دَعوَةً إِلَى العشَاءِ مِن الدُّكتُورِ عِيسَى.

العَلاقَاتُ الاجتِمَاعِيةُ ليسَت مِن اهتِمَامَاتِي غيرَ أنَّ الودَّ واللُّطفَ وَالإِصرَارَ فِي دَعوتِهِ لَم يَترُكُوا أمَامِي مَهرَبَاً، فَذَهبت.

سَبَقَ وَأَخبَرَنِي أنَّهُ سَيَكُونُ وَزوجتُهُ فِي انتِظَارِي عِندَ التَّاسِعةِ مِن مَسَاءِ اليوم.

حَاوَلتُ التَّأنُّقَ قَدرَ الإِمكَانِ وَفِي طَرِيقِي ابتَعتُ بَاقَةً مِنَ الزَّهر.

لَم يَكُنِ المَنزِلُ بَعيدَاً فبعدَ رُبعِ سَاعَةٍ مِنَ السِّياقةِ رَكنتُ سَيَّارَتِي بِمُحاذاةِ الرَّصيفِ المُجَاورِ لِبابِه.

قَرَعتُ الجَرَسَ فَاستَقبَلَنِي عِيسَى بِابتِسَامَتِهِ المُشرِقَةِ وفِي الدَّاخلِ وَقَفَتِ الزُّوجَةُ مُرَحِّبَةً بِي.

امرَأةٌ فِي مُنتَصفِ الثَّلاثين تَفرُدُ شَعرَهَا الأسوَدَ عَلَى كَتِفِيهَا وَتَرتَدِي فُستَانَاً خَمرِيَّاً يُظهِرُ سَاقِيهَا الطَّوِيلتِينِ حَتَّى الرُّكبَتِين.

عَينَاهَا سَودَاوَانِ واسِعَتَانِ مُطِلَّتانِ على أنفٍ مُدَبَّبٍ أمَّا شَفَتَاهَا الكَبِيرَتانِ فَقَد كانَتَا مَصبوغَتينِ بالعِنَّابِي.

إنَّهَا بِحَق شَريكَةٌ جَمِيلةٌ وَمُنَاسِبَةٌ لِصَدِيقِي الَّذِي لَم يَمضِ شَهرانِ عَلَى تَعَارُفِنَا فِي إِحدَى المُنَاسَبَاتِ الَّتِي قُمتُ بِتَغطِيتِهَا كَصحَفِيٍّ يَعمَلُ في مَجلةٍ مَحلِّية.

قَدَّمتُ لِلسَيِّدَةِ بَاقَةَ الوَردِ فَشَكَرَتنِي بِلُطفٍ وَقَالَت:

.تَفَضَّل.

هُنَا اكتَشَفتُ أنَّ صَوتَهَا مثيرٌ كَحَقِيبةٍ كَبيرَةٍ مَلِيئَةٍ بِالدُّولارَات.

وَبَعدَ أن تَفَضَّلتُ وَجَلستُ تَابَعت:

.أنَا مُعجَبَةٌ جِدَّاً بِقصَصِك.

ابتَسَمَ عِيسَى وَأخبَرَنِي أنَّهُ يَقرَأُ لَهَا جَمِيعَ القصَصِ الَّتِي أنشُرُهَا عَلى صَفحةِ الفيسبوك الخَاصَّةِ بي.

شَكَرتُهُمَا عَلَى لَبَاقَتِهِمَا مُتَمَنِّياً أن أكُونَ عِندَ حُسنِ الظَّنِ دَائِمَاً وَبعدَ أن استَأذَنتُهُمَا، أشعَلتُ سِيجَارَة.

دَخَلت السَّيِّدةُ إلَى المَطبَخِ لِتُعدَّ القَهوةَ بينَمَا تَجَاذبنَا عِيسَى وَأنَا أطرَافَ الحَديثِ فِي الشَّأنِ السِّياسِي وعِندَمَا عَادِتِ الزَّوجَةُ الشَّهيَّةُ احتَجَّت عَلى ذلكَ بِالقولِ وهيَ تُقَدِّمُ لَنَا القهوةَ:

.أكرَهُ السِّياسَة، رأسِي يؤلِمُنِي عِندَ الاستِماعِ إلَى أخبَارِهَا وَشُؤونِهَا .

ضَحِكَ عِيسَى وَقَال:

.سَنُوقِفُ الحَديثَ إذاً، سَمعَاً وَطَاعَة.

قُلتُ مَازِحَاً:

.السَّمعُ والطَّاعَةُ مَنوطَانِ بِكَ وَحدَكَ هُنَا. فَضَحِكنَا جَمِيعاً.

بَعدَ ساعتَينِ مِنَ الأخذِ والرَّدِّ فِي أكثرِ مِن مَجَالٍ أدَبيٍّ واجتِماعيٍّ وَفنِّي، كَانَت طَاوِلةُ العَشَاءِ جَاهِزَةً فَجَلسنَا إليهَا مُتقَابِلينِ عِيسَى وَأنَا أمَّا زِينةُ أمسِيتِنَا فجَلَسَت بينَنا إلى رأسِ الطَّاوِلَة.

رُحنَا نَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ فَشَعرتُ بِشَيءٍ لَامسَ سَاقِي.

فِي المَرَّةِ الأولَى لَم أكترِث لكِن عِندَمَا تَكَرَّرَ المَوقِفُ أيقَنتُ أنَّهَا هِي.

يَا لِتلكَ الأَصَابِعِ ذاتِ المَلَمَس السَّاحِر.

زَوجُهَا يَجلسُ إلَى جِوارِهَا وَقَدَمُهَا فَوقَ سَاقِي!

بَدأتُ أتَصَبَّبُ عَرَقَاً ثُمَّ تَسَاءلتُ مَع نَفسِي:

.هَل أقبَلُ دعوةَ شهوَتِهَا أم أذهبُ على الفورِ مِن هُنَا؟

هَل أُخبرهُ؟

ثمَّ استدرَكتُ:

.مَا هَذهِ الحَيونَةُ، ماذا سَأخبره؟ اللَّعنَة.

نَظَرتُ لِلحظةٍ فِي عَينِهَا وَرَأيتُهُ، شَيطَانُ الغِوايةِ يَجلِسُ مُتَرَبِّعَاً، وَيبتَسِمُ.

. مائِدةٌ دَائِمَة ..

قُلتُ وَنَهضتُ فأنَا لا أرِيدُ هذهِ الُّلعبَةَ القَذِرَة.

لَو كَانَت عَزبَاءَ أو امرَأةَ شَخصٍ لا أعرِفُهُ لَمَا تَرَدَّدتُ ثانيةً فِي مُضَاجَعَتِها.

احتَجَّ عِيسَى عَلَى تَوَقُّفِي عَنِ الأكلِ باكِرَاً فَتَذَرَّعتُ بِالحِميَةِ الغِذَائِية.

قَالَت هِي بِخُبثٍ:

.رُبَّمَا لَم يُعجِبهُ.. المَذَاق.

أَجَبتُ بِغصَّةٍ:

.عَلَى العَكسِ، المَذَاقُ رائِعٌ لَكِن، يَكفِي مَا تَنَاوَلتُه.

كَانَ مَلَمَسُ أصَابِعِ قَدَميهَا يُزَلزِلُ جَسَدِي.

أشعُلتُ سِيجَارَةً وَعُدتُ إلَى مَكَانِي فِي غُرفةِ الضِّيوفِ مُستَعِيدَاً مَا جَرَى.

لَا تَكرَهوهَا.

لَم تَلمِس قَدَمُهَا سَاقِي سِوى مَرّةٍ واحِدَةٍ وَبِالخَطَأ، أمَّا شَيطَانُ الشَّهوَةِ فَلَم يَكُن مُتَرَبِّعَاً فِي عَينِيها بَل فِي عَينِي وكُلُّ مَا حَدَثَ سَبَبُهُ الفَرَاشَةُ التِي تَضرِبُ بِجَنَاحِيهَا الهَواءَ فِي مَكَانٍ لِيَحدُثَ إعصَارٌ فِي مَكانٍ آخرٍ، قَد يَكونُ هذا الإعصار، دَاخِلَ الجَسَد.

***

نافِذةٌ صَغيرة

وصلتُ قبلَ قليلٍ إلى الشَّاطئ.

قُبيلَ هجرتهِ إلى كندا، صديقي زكريا أعطانِي مفاتيحَ (الشَّاليه) التي يَملِكُها كي أهتمَّ بها أو أقيمَ فيها متى سنحتِ الظروفُ صيفاً أو شتاءً.

ركنتُ السيارةَ أمامَ البناءِ المطلي باللونينِ الأبيض والأزرق والمسقوفِ بالقرميد.

أصنافٌ رائعةٌ من الزهورِ والشُّجيراتِ العابقةِ زيَّنتِ الحديقةَ المُتاخِمةَ للشاليهِ وفي منتصفها تربَّعت طاولةٌ خشبية ثُبِّتت في الأرض وحولها أربعُ كراسٍ من الخيزران.

عن يمينِ الشَّاليه بئرٌ يتدلّى من فوقِ الدعامةِ أعلاهُ دلو متوسطُ الحجمِ مربوطٌ بحبلٍ حولَ بكرةٍ معدنيةٍ فيما تحيطُ المكانَ كُلّهُ أرضٌ صغيرة تتناثرُ فيها الأعشابُ البرية.

أخرجتُ من الثلاجةِ المصنوعةِ على شكلِ حقيبةٍ وكانت معي طوالَ الرحلةِ زجاجةَ بيرة ثمَّ جلستُ إلى الطاولة مادّاً ساقيَّ عليها وأشعلتُ سيجارة..

استغرقَ الأمرُ خمسَ دقائقٍ كي ينتقلَ السائلُ البارِدُ من جوفِ الزجاجةِ إلى جوفي مشفوعاً بما تيسَّرَ لهُ من نيكوتين.

كانَ البحرُ شديدَ الزرقةِ تحومُ فوقَ مياههِ الوادعةِ عصبةٌ من النوارسِ اللاهثةِ خلفَ الطعامِ فتذكّرتُ أنني لم أتناول شيئاً منذ الصباح.

ولجتُ الشاليه، وفي المطبخِ الصغيرِ وضعتُ قربَ الغازِ أكياسَ الخضارِ والفواكهِ التي أحضرتها معي كما وضعتُ صحنَ البيضِ وربطة الخبز ثم أشعلتُ الغازَ وعلى عجلٍ قمتُ بتقطيعِ بصلةٍ ما أن سخن الزيتُ حتى وضعتها فيهِ ثم أضفتُ بعضَ الملحِ والفلفلِ الأسودِ وكسرتُ فوقهم أربعَ بيضات.

تذكرتُ الحمية الغذائية التي أتبعها وأنا أقطّعُ حبَّاتِ البندورة فلم أتناول أكثرَ من رغيفي خبزٍ خلالَ الوجبةِ السريعة .

تملَّكني الإنهاكُ فخلدتُ إلى نومٍ عميق.

عندما استيقظتُ كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء. صنعتُ لنفسي فنجاناً من القهوةِ ثم خرجتُ إلى حديقةِ الشاليه وأشعلتُ سيجارة بينما كانت مراكبُ الصَّيدِ تمخرُ عبابَ البحرِ ملقية بأضواءِ مصابيحها قبلاتٍ رقيقة فوق جسدِ الماءِ العاري.

فجأة، صاحَ صوتٌ جهوري: "حانَ وقتُ النومِ يا كلاب".

انتزعني الصوتُ من أوهامي السَّابحة فوقَ أوراقِ دفتري فطويتهُ بهدوء.

أطفئتِ الأضواءُ بلحظةٍ واحدة في جميعِ أرجاءِ السجن.

نفس السجنِ الذي أودعوني فيهِ قبل خمسة عشر عاماً بتهمةِ ازدراءِ الأديانِ وإحباطِ نفسية الأمة العظيمة فلم يبقَ لي وأنا مستلقٍ فوقَ فراشي سوى ضوءٍ خافتٍ يرسلهُ القمرُ بحذرٍ من بينِ قضبانِ نافذة الزنزانةِ الصغيرة .

أمسيةٌ عادية في مقهى رخيص

أحضرَ النَّادلُ كأسينِ منَ الشَّاي على صينيةٍ صغيرةٍ كَانَ يَحمِلُها بيدٍ واحدةٍ ثم أحضرَ الأرجيلة.

قالَ أدهم :

.سأرجِعُ إلى سُوريا.

كَانَ المقهى الرَّخيصُ المُنزوي فِي حَارةٍ شعبيةٍ خَلفَ الكورنيشِ البحرِي مُثقلاَ بِالدُّخَان.

لِوهلةٍ تخيَّلتُ أنَّنِي أسمعُ صَوتهُ فقط دونَ أن أراه .

أدهمٌ يقولُ منذ تسعِ سنواتٍ إنهُ سيعودُ إلى سوريا ولا يفعلُ، لهذا لم أكترث كثيراً بِالَّذي قال.

عندما فتحَ البابَ شَابَّانِ أحدهمَا سمينٌ والآخر أسمن تجدَّدَ الهواءُ قليلاً داخلَ الصَّالةِ وانقشعَ الدُّخانُ شيئاً مَا فلمَحتُ صديقنا المصري يجلسُ إلى طاولةٍ في آخرِ المَقهى.

رفعَ يدهُ ملقياً التحية فحييتهُ بأحسن منها وواصلتُ عزفي المنفرد على آلة الأرجلية .

.في هذا الزمن، لم يبقَ لنا من الحريةِ أكثرُ من نفخِ الهواء بِغلٍّ من الصدور .

.(واحشني يا برِنس، مابشوفكش في الشغل ليه؟) .

سألَ إمام بصوتهِ الجهوري مطلقاً من فمهِ إثرَ ذلك غيمة من الدخان.

صديقنا الطيبُ هذا يعملُ في نفسِ المؤسسةِ التي نعملُ فيها لكن ضمن قسمٍ لا علاقة له بالصحافة من قريبٍ أو بعيد.

أعرفهُ منذ أعوامٍ طويلة.

أسمرٌ في منتصفِ العمرِ يرتدي نظارتين طبيتين وله من الأولادِ ثلاثة يعيشونَ مع أمهم في بلدهِ لأن المرتبَ الذي يتقاضاه لا يسمحُ أن يعيشوا في هذه البلادِ إلى جواره.

.ما الذي تعرفونهُ عن الغربة؟

كانَ يسألُ دائماً ليعبّرَ عمَّا يختلجُ في أعماقهِ من قهرِ الفراقِ وقسوةِ الحياة.

ولأنهُ .كمعظمنا .لم يكن يعرفُ سوى رفاقِ العملِ الطويلِ يدركُ من تلقاءِ نفسهِ سخرية أن يوجّهَ هذا السؤالَ لنا فيكتفي بالقهقهةِ والصمت.

لم أدرِ كيفَ سأشرحُ من طاولةٍ إلى أخرى أنهُ أمرٌ طبيعي ألا نلتقي في العملِ إلا قليلاً.

اكتفيتُ بالابتسامِ والادّعاءِ أنني أتابعُ ما تعرضهُ الشاشة الكبيرة المثبتة على الحائطِ المقابل.

كانت المطربة الملتزمة ميريام تهزُّ مؤخرتها بطريقةٍ مثيرةٍ للشجونِ لكن، بكثيرٍ من السحر.

مكمنُ السحرِ في مؤخرتها أنها تدفعكَ للتصفيقِ دونَ أن تسمعَ حرفاً واحداً على الرغمِ من أنَّ الصوتَ والكلامَ عاملانِ مهمانِ في نجاحِ المطربة.

طلبتُ من النادلِ جمراً للأرجيليةِ فأحضرهُ بعدَ نصفِ ساعة .

للمقاهي الرخيصة إيجابياتٌ وسلبيات.

. ما الذي ستفعلهُ وأنتَ مسؤولٌ عن أسرةٍ والالتزاماتُ المادية تطمركَ من رأسكَ حتى قدميك؟

بالأحرى، أينَ المفر؟

الوطن.. الغربة.

في الوطنِ حربٌ ونهبٌ وسلبٌ وظلمٌ وقهرٌ ومحسوبياتٌ وفسادٌ مرعب.

في الغربةِ عملٌ و....لا أعرف .

كانَ أدهمٌ في تلك الأثناء يردُ كالمجنون أبيات السوري الجميل منذر الشيحاوي:

.أينَ المفرُّ من العذابِ..

والليلُ يطفحُ بالذئابِ..

كيفَ اتجهتَ بناظريكَ..

يسيلُ حولكَ ألفُ نابٍ..

يا أيها الوطنُ المُدجّجُ بالجراح..

لديكَ ما بي..

إنّي أحبكَ بالمديح.. كما أحبكَ بالسبابِ..

وطني.. رجوتكَ أن تفرّقَ..

بين نحلكَ والذبابِ..

بينما كنتُ أسحبُ بعمقٍ من أرجيلتي وأطلقُ في الهواءِ وطناً من دخان..

قلتُ:

.سأرجعُ إلى سوريا.

منذُ تسعِ سنينٍ أقولُ لصديقي سأرجعُ إلى سوريا ولا أفعل. لهذا، لم يكترث كثيراً بالذي قلت.

بعد قليلٍ، نادى النادلَ ليحضرَ لنا مزيداً من الجمر.

***

الغرفة العتيقة

في الغرفةِ العتيقةِ التي خرجَ قبلَ عشرينَ عاماً منها، كلُّ شيءٍ كانَ على حالهِ حينَ زارها قبل أيّام.

رائحةُ المكانِ الغارقِ في الحنين.

أشرطةُ الكاسيتِ المُتعبة، الستائرُ البيضاءُ المُغبرَّة.

المكتبة التي تعبت مع أمّهِ في إنجابهِ.

أشعلَ سيجارة راحَ يُدخِّنُها بهدوءٍ قربَ نافذةٍ مُطلّةٍ على بحرٍ من الذكريات.

الخزانةُ الخشبيةُ ما زالت متكئةً على الجدار وحمّالةُ الثيابِ خلفَ البابِ المُوارَبِ، تمكثُ خلفه.

السريرُ القديمُ وفوقهُ صورةُ أم كلثوم كأنها تشدو

" أقلك إيه عن الشوق يا حبيبي" .. ها هي بعدَ مرورِ السنينِ، كأنها تشدو..

قشعريرة داكنةٌ انتابتهُ حين أدركَ أن في هذهِ الغرفةِ العتيقة ما من شيءٍ تغيَّرَ إلّاه.

***

الزوجة الواقفة وحدها

ما هي احتمالاتُ أن تقرأ في كتابٍ على غلافهِ الخلفي صورة مؤلفهِ مع نبذةٍ قصيرةٍ عنه ثمّ بعدَ ساعةٍ تجدُ المؤلّفَ واقفاً أمامك؟

هكذا بدأت قصتي مع أغيد عماد، وزوجته.

من سخريةِ القدرِ أو تهريجهِ .لستُ أدري . أشاركُ منذُ عشرِ سنواتٍ في معرضِ العاصمةِ الكبيرِ للكتابِ، كبائع.

أبيعُ كتبَ التقنياتِ الحديثةِ في جناحِ المؤسسةِ التي أعملُ فيها.

خلالَ دورةِ هذا العامِ شاءت الصدفُ أن يكونَ جناحُ المؤسسةِ مقابلاً لجناحِ واحدةٍ من أشهرِ دورِ النشرِ في العالمِ العربي، دار الغروب .

نعم، الدارُ التي تتولّى طباعة ونشر أعمالِ الكاتبِ أغيد عماد صاحبِ الروايةِ ذائعةِ الصيت

(الفيل البنفسجي).

كانَ منتصفُ النهارِ يشهدُ فتوراً في إقبالِ الزوارِ مما يتيحُ الفرصة كي أطالعَ بعضَ الكتبِ المعروضة.

أمسكتُ الكتابَ الأخيرِ للروائي المشهور وبدأتُ أقلبُ صفحاته.

ربما لم أخبركم من قبل لكنني نهمٌ نوعاً ما في القراءة خاصة إن كان المزاجُ طيّعاً.

في نصفِ ساعةٍ أنهيتُ ستينَ صفحة من الروايةِ الجديدة.

من سوءِ حظهِ، سبقَ لي أن قرأتُ معظمَ كتبِ عالم الفلكِ الأمريكي ذي الأصولِ اليهوديةِ كارل ساغان كما أنني عاشقٌ من طرازٍ خاص لكتبِ ومحاضراتِ العالمِ البريطاني ريتشارد دوكنز لكنّ الأهمَ من هذا وذاك أنني أنجزتُ قراءة جميعِ الرواياتِ التي ألّفها الكاتبُ الأمريكي دان بروان كما شاهدتُ الأفلامَ التي اقتُبِست عن شيفرة دافنتشي وملائكة وشياطين والجحيم.

لماذا سيكونُ مثل هذا الشيءِ من سوءِ حظِ كاتبٍ عربي؟

سأقولُ لكم.

عندما يسرقُ أحدهم أفكارَ شخصينِ عظيمينِ كساغان ودوكنز ويعتمدُ ذاتَ الأسلوبِ الذي بنى فيه براون شخصية (روبرت لانغدون) ليؤلفَ رواية ثم يأتي من يصطادهُ بعدَ قراءةِ أولَ عشرين صفحة سيكونُ هذا من سوءِ حظهِ لكن، ليس كثيراً.

أنا في النهاية لستُ ناقداً ولا يعنيني النقدُ في شيءٍ، أنا مُجرَّدُ بائعِ كتب.

أعدتُ الكتابَ إلى الطاولةِ وما أن هممتُ بالرجوعِ إلى الجناحِ وجدتهُ واقفاً أمامي .

رجلٌ نحيلٌ أصلعٌ حليقُ الذقنِ والشاربينِ تحتَ عينيهِ الواسعتينِ هالتانِ سوداوانِ لا يقلّ طولهُ عن المائةِ والثمانين سنتمتراً وبجوارهِ امرأة جميلة جداً ذات مؤخرةٍ رائعة.

كانت السيدة ترتدي قميصاً أبيضاً وبنطالاً أسودَ مشدوداً إلى جسدها بعنفٍ مما أتاحَ لمؤخرتها الكبيرة حرية التغريدِ خارجَ السرب.

ابتسما بلطفٍ فبادلتهما الابتسام وعدتُ إلى مكاني .

لا أنكرُ أنني تفاجأت فما هي احتمالاتُ أن تتصفحَ في كتابٍ ثم تجدُ كاتبهُ واقفاً أمامك؟

عندما رأيتُ مؤخرةَ تلكَ السيدةِ واستنتجت بعبقريتي المتوارثة ضمن سلالتنا النادرة أنها زوجته، سامحتهُ على فعلتهِ وقلتُ في نفسي:

. رجلٌ يضعُ قضيبهُ كلَّ يومٍ في هذهِ المؤخرةِ من حقهِ أن يسرقَ قليلاً أفكارَ ساغان ودوكنز وبراون لا بل إنني ذهبت أبعدَ فقلت:

.حتى هم سيسامحونهُ لو شاهدوا مؤخرة زوجته .

في النهاية، لا شيءَ يغفرُ قليلاً لكاتبٍ أو أيّ شخصٍ في العالم سرقة نتاجِ كاتبٍ آخر إلا أن يكون متزوجاً من امرأة لديها مؤخرة شهية ترتجُّ عند المشي أو الصفع .

أغيد عماد كانَ مشهوراً فقد خصّصت له دارُ الغروبِ في جناحها فسحة لتوقيعِ إصدارهِ الجديد للقراء. هكذا، انشغلَ الرجلُ ببعضِ الزوار وتجاذبَ معهم أطرافَ الحديثِ بينما وقفت تلكَ المرأة وحدها .

حاولتُ أن أكون (جنتل) وألَّا أبحلقَ في المؤخرةِ الساحرةِ لكنني فشلتُ كما فشلتُ في كثيرٍ من الأمورِ خلال حياتي الكئيبة.

لم أستطع المقاومة على الرغمِ من كوني أنتمي لبلدٍ يرفعُ شعارَ المقاومةِ حتى أمامَ أطفالِ شهداءِ جيشهِ الذين يسرقُ مسؤولوهُ منهم لقمة العيش.

تقدمتُ من السيدةِ وقلت:

.هل أنت نسرين؟

هزّتِ المرأة رأسها بدلالٍ تستفسرُ فقلت:

.هل أنت نسرين التي كتبَ عنها زوجكِ في روايتهِ الأخيرةِ وصوّرَ حالة الملِ التي تعتريهِ منها؟

ضحكت بارتباك ثم قالت:

.لديكَ سوءُ فهمٍ أيها السيد، إنها مجردُ خيالاتٍ للكاتبِ وليست حقيقة.

ما الذي تعرفهُ أنتَ عن الكتابة؟

أغيد يُحبُّني أكثر ممَّا تتصور وهو متعلقٌ بي كروحه.

ثم روت لي كيفَ تعرفت عليهِ خلال دراستهما الجامعية وامتدت خطبتهما ثلاثَ سنوات.

حين أوشكت أن تتابعَ قاطعتها على الفور:

.ما رأيكِ أن نكملَ الحديثَ مع سيجارةٍ و فنجانِ قهوةٍ في الكافيتريا المجاورة..

زوجكِ مشغولٌ والحديثُ طويل..

ثم..

رأيتُ ضحكةً في عينيها وقالت..

.لم لا.

المبغى

مئتانِ وأربعة عشرَ يوماً لم ألمس فيها امرأة.

كأنَّ لافتةً ضخمةً كانت موجودة لحظة وصولِ الطائرةِ إلى هذهِ البلاد لكنَّ رؤيتها فاتتني.

لافتةٌ تقول:

.مرحباً بكَ في الجحيم.

للجحيمِ أوجهٌ عدة، من بينها، المكانُ الذي لا نضاجعُ فيهِ النساء.

لا غرفةٌ مستقلة أعيشُ فيها، لا راتبٌ جيدٌ يسمحُ بمصاحبةِ الفتيات.

كانَ الأمرُ في سوريا أقلّ تعقيداً.

اللعنة.

في البدايةِ لم أشعر بهذا الكمِّ الهائلِ من الضغطِ لكن بعدَ مضي الشهرِ الرابعِ من الغربة بدأتُ أعوي كذئبٍ وحيدٍ في قفص.

توالتِ الأيامُ وما استجدَّ شيء.

أذهبُ إلى العمل، أعودُ إلى السكنِ المشترك، أتناولُ الطعامَ، أقرأ، أشاهدَ فيلماً أو أتابعُ مباراة و.. أنام .

كانتِ القراءةُ الشيء الوحيدَ الذي يُميّزني عنِ الحيوان.

ذاتَ يوم، وبينما كنتُ أشربُ المتة وأدخّنُ تحتَ شجرةِ الغافِ أمامَ مقرِّ إقامتي زارني صديقٌ من أصدقاءِ العمل.

صنعتُ لهُ كأساً ثمَّ قدمتُ سيجارة وأشعلتُ واحدة لنفسي.

بعدَ أخذٍ وردٍّ سأل:

.ماذا تصنعُ بأيامك؟

أجبتُ:

.كما ترى، لاشيء .

وأنت؟

.مثلكَ يا عزيزي، أعملُ، أتناولُ الطعام، أضاجعُ.. وأنام .

لستم بحاجةٍ كي أخبركم كيفَ حلَّ وقعُ الكلمة في نفسي.

هو عازبٌ مثلي وراتبهُ أقلُّ من مرتبي.

نارٌ عظيمةٌ استعرَ لهيبها داخلي فلم أتردَّد بالسؤال:

.كيف؟

ابتسمَ اللعينُ بمكرٍ وهو ينفثُ دخانَ سيجارتهِ ثم قال:

.في المبغى.

.لكنّ المبغى بحاجةِ أموالٍ، من أينَ لكَ بها؟

.الذي أزورهُ لا يحتاج الكثير صدقني

قالَ وأضاف:

.لن تجدَ هناكَ ملكاتِ جمالٍ بالطبع لكن النوعية لا بأسَ بها.

غادرَ صديقي عندَ التاسعةِ مساءً وعند الحادية عشرة كنتُ هناك.

هل تتخيلونَ أنني تركتهُ يذهب دون أن يشرحَ لي كيفية الوصولِ، بالتفصيل؟

كانَ الشارعُ الذي يضمّ البناءَ المنشودَ شبهَ معتمٍ.

حينَ قرأت اسمَ (العلامة) وكانت السوبرماركت المجاورِ أيقنتُ أنني في المكانِ الصحيح.

طلبتُ المصعدَ وحين أصبحتُ داخلهُ ضغطتُ الرقم 2.

في نهايةِ الممرِ المضاءِ بخفوتٍ صوبَ اليسار بابٌ خشبيٌ مغلق .

.افتح يا سمسم.

قلتُ بهمسٍ، لكن سمسماً لم يفتح .

طرقتُ ثلاثاً وإذ بالبابِ يتحركُ ووجهٌ مُقزّزٌ يطلُّ من ورائه .

كانَ الشابُ الفليبيني يضعُ قرطين وشعرهُ الناعمُ يغطي نصفَ وجهه.

تذكرتُ على الفورِ دعابة كنا نتداولها مطلعَ الصبا .

تتحدثُ الدعابة عن قليلِ الحظِّ الذي قذفَ قضيبهُ في مدرسةِ الفتياتِ لكنهُ دخلَ في مؤخرةِ الناطور .

ها هو الناطورُ بشحمِه ولحمهِ يرحبُّ بي ويقول:

.تفضل يا سيدي، ستُسرُّ عندنا .

بلعتُ ريقي وتفضلت.

وسطَ الصالونِ مكتبٌ جلسَ الفليبيني خلفهُ وأشارَ إلى كرسي جلدي قائلاً :

.خذ راحتك .

أخذتُ راحتي، ثمَّ أشعلتُ سيجارة وكلّي رجاءٌ ألا يكونَ جميعُ القاطنين هنا من فصيلةِ هذا القوَّاد .

بعد ثلاثِ دقائقٍ من الترقبِ ظهرت فتاةٌ آسيوية ثمّ تبعتها خمسُ فتياتٍ لم يكنّ أكبرَ منها بل أطول .

وقفنَ أمامي مبتسماتٍ كي أنتقي واحدة .

تأملتُ الوجوهَ جيداً فأهمُّ شيءٍ في المرأة عندي وجهها الجميل ثم يأتي جسدها تالياً.

انتقيتُ أقصرهنّ وأنعمهنّ، تلكَ التي ظهرت في البداية.

دفعتُ المبلغَ السخيفَ ثمَّ أمسكتني بيدي ومضينا إلى الداخل .

ولِجنَا غرفة منزوية .

كانت الغرفة صغيرة ومزدانة بلوحاتٍ من الفلوكلور الصيني ذي التنانين.

قلتُ لنفسي:

.اكتشافُ النارِ نقلة نوعية في تاريخِ الإنسان فألفُ مرحبٍ بالتنانينِ و(أمّهم) .

في الغرفةِ سريرٌ مزدوجٌ بأغطيةٍ نظيفةٍ بالقربِ منهِ طاولة وحمالة ثياب.

قالت الفتاة بإنكليزيةٍ مُكسَّرة:

.سعيدةٌ بالتعرفِ إليك .

قلتُ:

.وأنا أيضاً.

سألتها عن عمرها فوجهها البريء الناعمُ أيقظَ ضميري اللعين.

في النهايةِ لن أضاجعَ طفلة تحتَ الخامسة عشرة حتى لو كلفني الأمرُ انتظارَ شهرٍ آخر.

حينَ أخبرتني أن عيد ميلادها السابع عشر كانَ قبل أسبوعٍ هنأتها وتنفستُ الصعداء .

معي ساعة واحدة كي أفرغَ منَ الأمر .

هذه هي القوانين، إن رغبتُ بشوطٍ إضافي عليَّ دفعُ المزيدِ من المالِ وهذا لم يكن ضمنَ خطتي .

جلستُ على طرفِ السريرِ ثمَّ أشعلتُ سيجارة .

قالت الفتاة:

.أرجوك، لا مضاجعة من الخلف.

اللعنة، هل يبدو من محيايَ أنني عاشقٌ لمؤخراتِ النساءِ ؟

أنا لم ألمسها حتى الآن.

.اطمئنّي يا عزيزتي، لا من الخلفِ ولا من الأمام.

ضحكت الفتاة معتقدة أنني أمزح.

أمسكت بأصابعها الرقيقة كنزتها ثمَّ شدَّتها صوبَ رأسها وخلعتها.

كانت تقفُ أمامي مرتدية حمالة الصدرِ وبنطالاً من الجينزِ فقط .

بهدوءٍ وخبرةٍ أدارت عروةَ البنطالِ فدارت وبدأت سحبهُ إلى الأسفلِ فما أن أوشكت على الانتهاءِ رمتهُ بقدمها إلى الأعلى .

طارَ البنطالُ وحطَّ على الأرض كما فعلَ قلبي .

بحمالةِ صدرها الزهرية ونهديها العزيزين وقفت تلك الفتاة أمامي بعد مئتين وأربعة عشر يوماً لم ألمس فيها امرأة .

أقسمُ أن دمعة سقطت من عيني وأنا أتأملُ عبقرية الخالقِ وإبداعه .

شفتانِ كرزيتانِ، جسدٌ متناسقُ يتوجهُ ثديانِ فتيانِ.

الثديانِ يطلانِ على بطنٍ مُمسَّدٍ وسُرَّة صغيرةٍ.

السُّرَّةُ بدورها تطلُّ على حوضٍ بديعٍ وفي المنتصفِ يقبعُ هناك، المهبل.

مسحتُ دمعتي ثمَّ أشعلتُ سيجارة بينما كانت تلكَ الفتاة تنزعُ عن جسدها أيَّ أثرٍ للملابسِ الداخلية .

بحرفيةٍ بينةٍ راحت تستعرضُ قوامها ثم اقتربت مني وحاولت وضعَ مهبلها على شفتي .

كدتُ أستسلمُ لكنني في اللحظةِ الأخيرة، أرجعتُ رأسي إلى الوراء .

اعتذرت مني معتقدة أنَّها أساءت التصرف .

المسكينة، لم تكن تعرفُ أنها لو كانت نظيفة لنهشتهُ بأسناني، لكنها عاهرة .

ما أدراني عدد الرجالِ الذين ضاجعوكِ هنا أيتها المسكينة.

قلتُ:

.لا تعتذري أرجوكِ، حين أخبرتكِ أنني لا أريدُ مضاجعتكِ من الخلفِ أو الأمامِ ما كنتُ أمزح .

امتقعَ وجهُ الصبيةِ معتقدة أنها لم تعجبني .

.اسمعيني جيداً.

قلتُ بهدوءٍ وأنا أمسحُ بيدي على رأسها.

خلال هذهِ الساعة التي ستمضينها معي، اعتبري جسدكِ في إجازة . لا أريدُ منه شيئاً.

.لكن لماذا أنت هنا؟

سألت الفتاة بحيرة.

.دعيني أكمل.

من جسدكِ لا أريد شيئاً، من فمكِ أريد كلّ شيء.

ستضعينَ قضيبي فيهِ حتى تخرجَ آخر نطفةٍ من هذه الدفعة، والسلام.

أشرقت عينا الفتاة كأنَّها استعادت ثقتها بنفسها وراحت تعمل .

كانت تعملُ بإخلاصٍ وتفانٍ فأتقنت كلَّ حركة أدتها شفتاها ولسانها .

حين قضيَ الأمرُ أعطيتها علاوة.

قلت:لا تخبري قوادكِ عن هذا المال، هو لكِ فقط .

ابتسمت وعانقتني فعانقتها، كانت علاقة إنسانية رائعة.

فتاة لم أكن قبل ساعةٍ أعرفُ أنها تشاركني ذاتَ النظامِ الشمسي.

فتاةٌ مجهولة حتى اسمها لم أعرفه ساعدتني في التخلصِ من حملٍ كجبلِ إيفريست، أما أنا فساعدتها ببعض النقود .

بعد ذلك، وعلى مدارِ عامين، ساعدتُ ثمانية وخمسين فتاة آسيوية بقلبٍ ملؤهُ الامتنانِ فإذا اعتقدتَ للحظةٍ عزيزي القارئ أنني أبالغُ، لا تفعل.

***

الجُندِي وَالقَتَاة

فِي المَدينةِ الشَّماليَّةِ الكَبيرةِ، كانتِ الحَربُ تَطحنُ الجَميع.

انقسمَ النَّاسُ بينَ مُؤَيّدٍ لِلحكومَةِ السُّوريَّةِ ومُعَارضٍ لَها ثُمَّ رَاحَوا كَأُخوتِهم فِي العَدَيدِ مِنَ المُدنِ يَقتلونَ بَعضهم بِمُختَلفِ أنواعِ الأسلِحةِ الخَفيفةِ والثَّقيلةِ المُقدَّمةِ بِسرُور لِكُلّ طَرفٍ مِن جِهَاتٍ خَارجيَّة.

قَالَ تُركيٌّ مُمَازِحَاً صديقَهُ الإيراني:

.قَتلنَا مِنكُم عَشرة آلافِ سُورِيّ يا حَقِير.

غَضبَ الإيرانيُّ مِنَ المُزاحِ القَاسِي وأجَابَ علَى الفَور:

.قَتلنَا مِنكُم عِشرينَ ألف سُوريّ فَبِمَاذا تَتَباهَى يَا كَلب؟

كَانَ المَقهى الَّذِي يَجلِسانِ فِيهِ مُطِلَّاً عَلى شَارِعٍ جَميلٍ يَتمشَّى فِيهِ الغَربيونَ مُستَمتِعينَ بِخيراتِ الرَّبيعِ العَربِيّ الَّذي انتَشَلهُم مِن أعنفِ عَاصِفةٍ اقتصَاديَّةٍ عَرفوهَا يَومَاً.

خَلفَ الطَّاولةِ الَّتِي جَمعتهُمَا كَادت فَتاتَان روسيَّة وأمريكيَّة تَموتَا مِنَ الضَّحكِ وَهمَا تَستَرِقَا السَّمع.

***

لَم يَكُن مَاهِر خضُّور قَد تَجاوزَ مُنتَصفَ العِشرِينَاتِ مِن عُمرهِ حينَ طُلِبَ إلَى الاحتِياط.

.لِمَاذا لا يُطلبُ أبنَاءُ الأغنياءِ إلى الاحتِياط؟

سَألَ والَدهُ قُبيلَ التحاقهِ بِالحَربِ لكنَّ الأبَ اكتفَى بِالصَّمتِ، وَالقَهر.

غادرَ الشابُ قَريتَهُ السَّاحِليَّة والتحَقَ بالجيشِ ثُمَّ قاتَلَ في حمصَ ودمشقَ ودرعَا وأصيبَ خِلالَ المَعاركِ خَمسَ مراتٍ لكنَّهَا لم تَكن إصابَاتٍ قاتِلة، مَتى شُفيَ مِنها أعادوه إلى الحَربِ مِن جَديد.

ذاتَ يوم، وبينمَا كانَ فِي استراحةٍ قصيرةٍ من الحربِ علمَ أنَّ قرارَ نقلهِ مع اثنينِ مِن رفاقهِ إلى المدينةِ الشَّماليَّةِ قد اتُخذَ وعليهم المغادرة ظُهرَ اليومِ التَّالي.

قَال:

. أليسَ مِنَ الغريبِ أنَّهُ لم يكُن بِمقدورِي فِي أوقاتِ السِّلمِ أن أمارسَ هذهِ السِّيَاحة الوطنيَّة، للحربِ فوائدُها أيُّهَا الرِّفَاق.

انفجرَ الرِّفاقُ ضَاحِكين كَي لا ينفجرُوا بُكاءً.

.ما أصعبَ أن تتعرفَ إلى بلادكَ فقط أثناء المَعارِك.

المَدينةُ الكبيرةُ التي كانَ الجيشُ النِّظامي يسيطرُ على نِصفِهَا استقبلتهُ بحفاوةٍ وشعرَ منذ اليومِ الأول بالألفَةِ فيها، أحبَّ سُكَّانَها المنتمينَ لطائفةٍ دينيةٍ مُغايرةٍ لِطائفتهِ لكنه لم يشعر للحظةٍ بِالغربةِ حتى أن أهلَ العمارات المجاورةِ لمَقرّ قطعتهِ العسكريَّةِ كَانوا يزوّدُونَهُ ورفاقَهُ ببعضِ المَأكولاتِ التي تشتَهرُ مَدينتُهم بِها.

لم يكُ الطعامُ مُهمَّاً لِماهر بقدرِ الحَسناءِ الَّتِي يَراها عَصرَ كُلَّ يومٍ تشربُ الشَّاي بِصحبةِ أهلهَا على شُرفةِ شقَّتِهم إن لم يَكن هُنالكَ مِن قَذائفٍ تَتساقط.

.الحَربُ فاجِرةٌ لكِنَّ إرادةَ السُّوريين أفجر.

كانَ يقولُ ذلكَ لنفسهِ دائِماً كَي لا يَستسلمَ لِلتَعب.

فِي انتظارِ طلَّتها أمضَى السَّاعَات وحينَ تخطرُ على بَالهِ أثناءَ المَعاركِ يبتسمُ سَاخراً من نفسهِ إذ لَطالمَا سخرَ في الماضي من عنترة الذي قال:

.ولقَد ذَكرتُكِ والرِّمَاحُ نواهلٌ، مِنِّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمِي

فودتُ تقبيلَ السِّيوفِ لأنَّها، لَمعت كَبارقِ ثغركِ المُتبسِّمِ

حينَ سَألهُ صَديقهُ عَن سرِّ تلكَ الابتسامةِ وهُمَا يُواجهَان المَوتَ أجابَ بغموض:

.مَا أجملَ بارقَ ثغرِهَا يَا حَبيب.

هزَّ (الحبيبُ) كتفيهِ وقالَ بعصبيةٍ:

.أيُّها الأبله، ذاكَ زمانٌ مَضى كانُوا فيه يُحاربونَ بالسيوفِ فعلاً فأينَ تجدُ ها هنا سيوفاً؟

رصاصٌ، مُفخَّخات، براميلٌ، بنادقٌ، دباباتٌ، طائراتٌ، مدافعٌ، مُسدَّسات، أينَ السيوفُ التي تراها بحقِّ الجحيمِ الذي نحنُ فيه؟

اللهمَ ثبِّت علينا العقلَ والدين.

ابتسمَ أيضاً لكنَّهُ لم ينطِق بِحرف.

ذاتَ يومٍ، بَاغتهُ غُلامٌ فِي مقرِّ حراستهِ وأعطاهُ ورقةً مُعطَّرةً كُتبَ فيها:

.الجَاحِظ، السَّاعة السَّادسَة، بِانتظارك.

تخَلخلَ الوجودُ فِي أعماقهِ وصغرَ، صغرَ جداً، تحوّلَ فِي ثوانٍ إلى نقطةٍ باهتِة ثمَّ بلحظةٍ واحدةٍ انفجرَ وبُعِثَ أشهَى وأجمَل.

فِي الحدِيقة كانت تنتظرهُ بصحبةِ قريبتها.

قال:

.(كيفكن).

ابتسمت ذاتُ الثَّغرِ البَارقِ وأوشكَ على البكاء.

.ما أجملَ هذه الابتسامة يا الله.

أشعلَ سيجارة وجلسَ إلى جوارها.

تحدثَا كَجائعين للكلام، لساعةٍ كاملةٍ وهما يسردانَ القصصَ عن نفسيهما ويسخرانَ من طائفتيهما.

.الدينُ الذي يشجّعُ الناسَ على القتلِ يجبُ التخلصُ منه.

قالت وهي تمسكُ يدهُ ثمَّ أضافت:

.سَأحبُّكَ حتى آخر العمر، سأتزوجكَ رغماً عن أهلكَ وأهلي.

كانت فرحتهُ أكبرَ من قلبهِ فسرقَ قبلة.

وكمَا قالَ لرفيقِ سلاحهِ.. كانت تلكَ القبلة أجملَ ما حصلَ في حياتهِ.

قال أيضاً:

.سأتزوَّجُها رغماً عن أهلها وأهلي، طائفتِها وطائفتِي، ليس هذا وحسب، سأعلِّمها السباحَة يا حبيب، ثُمَّ سادت لحظاتٌ من الصمتِ في ليلِ الحراسةِ الطويل.

ثلاثُ رصاصاتٍ اخترقت جُمجمة مَاهر نَهار اليومِ التالي.

كانت واحدةً من أشرسِ المَعاركِ التي شهدتها المدينة الشمالية الكبيرة.

سقطَ فيها من الطَّرفين قتلى كُثر وكَان ماهرٌ من بينهم لكنَّه الوحيدُ الذي قالَ قبلَ موتهِ:

.فودتُ تقبيلَ السيوفَ لأنَّها، لمَعت كبارقِ ثغركِ المتبسِّمِ..

غيرَ أنَّه لم يجد هذه المرة متسعاً من الوقتِ ليبتسمَ أمام نظراتِ رفيقهِ الفَارغَة.

***

حياة افتراضية

أمضى جُلّ حياتهِ أمامَ الشاشة.

أحَبَّ، فرِحَ، حَزِنَ، اشتاقَ، قرأَ، تألّمَ، تشاجرَ، اشتهى..

في الحقيقةِ، عاشَ أمامَ الشاشة.

حينَ مات، على رخامةِ قبرهِ كتبوا:

-كانَت حياتهُ.. افتراضية.

***

الغناءُ تحتَ الثلجِ

اجتمعَ أهلُ القريةِ لاستقبالهِ رغمَ الطقسِ اللعين .

كانَ الثلجُ قد شرعَ بالهطولِ منذ ليلِ الأمسِ ومع ساعاتِ الصباحِ الأولى تمكنَ من مراودة أشجارِ الحواكيرِ والدروبِ وأسطحة المنازلِ التي بدت للقادمِ من بعيدٍ بمداخنها كقطاراتٍ مسافرة .

في الساحةِ الرئيسيةِ تحلّقَ بعضُ الشبانِ حولَ نارٍ أشعلوها وسطَ علبةٍ معدنيةٍ بينما انتهى آخرون من نصبِ خيمةٍ كبيرةٍ تمّ توزيعُ الكراسي والطاولات فيها بشكلٍ منتظم .

وعلى الرغمِ من كونهِ على وشكِ الوصولِ لم تكن أمّهُ في حالةٍ جيدة.

في الحقيقة، لم تكن تريدهُ أن يصلَ، تماماً كما كانَ يريدُ أبوه.

لا أحدَ منهما في قلبهِ تمنّى رؤيتهُ فرؤيتهُ ستقطعُ أيّ أملٍ متبقٍّ .

للأملِ أنواعٌ وهو في نفسِ الإنسانِ شُعبٌ منها الأملُ الذي يجهلُ المرءُ تماماً إذا ما كانَ سيتحقّقُ أم لا وهو الأملُ الناصع .

الأملُ الداكنُ يعتلجُ في قلبِ الإنسانِ دونَ أيّ رجاءٍ في تحقيقهِ وهو أقربُ إلى الوهمِ لاقترانهِ بإدراكِ عبثيتهِ أمامَ الحقيقة القاطعة.

وعلى الرغمِ أيضاً من أنّ موكباً من السياراتِ كانَ برفقتهِ وقد بدأت طلائعهُ تلوحُ عند مدخلِ القريةِ المحاذي للجبلِ الكبير إلا أنَّ أمَّهُ بدأت بالغناءِ:

.الله معك يا حبيبي.. الله معك يا حبيبي .

فسألت أختهُ الصغيرة:

.إنه قادمٌ، لماذا تغني لهُ أمّي (الله معك) .

كانَ عددٌ من الرجالِ قد بدأ بإطلاقِ النارِ من أسلحةٍ فرديةٍ في الهواء بينما ما زالت ندفُ الثلجِ تتساقطُ برويةٍ ورياحٌ شماليةٌ تقبّلُ الجميعَ قبلة الموتِ الباردة .

بالقربِ من الساحةِ توقفُ موكبُ السياراتِ فترجّلَ منهُ بصندوقٍ خشبي تحملهُ الأكتاف .

. يا لهُ من عالمٍ مخيفٍ أخيلتهُ لا حصرَ لها أما حقائقهُ فتُعدُّ على الأصابعِ ومعظمها كئيب.

تعالى صوتُ الرصاصِ في الهواءِ وبدأت نسوةٌ ناحباتٌ الغناء .

.مفارقة عجيبةٍ حينَ يجتمعُ الغناءُ مع النحيبِ تحتَ الثلج .

قالَ أحدُ الكهولِ لنفسهِ والجميعُ يمضي قدماً إلى المقبرة .

.لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله

يصيحُ أحدهم فيردّدُ البقية مع صفيرِ الرياحِ الجليدية .

.الله معك يا حبيبي.. الله معك يا غالي.

تنادي الأمّ المفجوعة فيهتزّ عرشُ السماء .

لم يستمر هطولُ الثلجِ ندفاً في الطريقِ إلى المقبرةِ فقد زادت وتيرتهُ وبدأ يتساقطُ بغزارةٍ حتى غطّى معاطفَ الرجالِ وأوشحة النساءِ الضبابية .

حفرة لا يتجاوزُ طولها المئة والثمانين وعرضها المئة سنتمتراً كانت تنتظره وفي الحقيقة، لا تنتظرهُ وحدهُ لكن الاختلافَ يكمنُ في المواقيتِ والظروف .

صلّوا عليه.

أودعهُ الرجالُ ببزتهِ العسكريةِ داخلَ الحفرة بعد أن قاتلَ داعشَ لسبعةِ أشهرٍ شرقَ سوريا .

حاولت المرأة التي أنجبتهُ أن تنزلَ برفقتهِ لكنهم منعوها بالقوة .

كانَت وتيرة تساقطِ الثلجِ تزدادُ بغرابةٍ والرياحُ تعصفُ كعشرين قطيعاً من الذئاب .

إنّها العاصفة.

عادَ الجميعُ بسرعةٍ إلى بيوتهم ليحتموا منها بعدَ انتهاءِ المراسمِ إلا هو.

وحدهُ، هناك، عند القبرِ الوليد، بقي الأبُ راكعاً وأمامهُ على حجرٍ كبير صورةٌ لابنهِ وهو يبتسمُ ابتسامة من جليد.

***

قصةٌ حزينةٌ جداً

ذاتَ يومٍ أحبتني امرأةٌ جميلةٌ.

ما أن أقابلَ امرأةً جميلةً حتى تلعبَ بيَ الظنونُ وأعتقدُ أنها ستُحِبني.

وذاتَ يومٍ ، كانَ لي وطنٌ جميل.

على الفور، ما أن أرى بلاداً جميلة حتى أظنُّها ستغدو وطناً لي.

من يومها والعمرُ يمضي، خيبةً في إثرِ خيبة.

***

وقت إضافي

هذا الشعورُ المزمنُ بعدمِ كفاية الوقتِ المتاح ..

أنتَ دائماً بحاجةٍ لوقتٍ إضافي.

كلُّ شيءٍ ناقصٌ في هذه الحياة ما عدا الحزن، يأتيكَ كاملاً، وبتوصية.

أمرٌ سيبقى قائماً حتى لو مرَّ بهِ جميعُ البشر قبلكَ وكتبوا عنه .

أمامَ هذا الفناءِ العجيبِ المحفوفِ بالأسئلةِ لا غرابة أن يفكّر البشرُ بحياةٍ ثانيةٍ خاليةٍ من الحزنِ في نعيمٍ أبدي، الغريبُ ألا يفكّروا بذلك.

قبلَ أن تتزوجَ تلكَ الفتاة قالت:

.إنّه مناسبٌ، لديه عملٌ يُدرُّ الكثير من المالِ وعوضاً عن السيارة لديه اثنتان.

أما أنتَ فمجرّدُ مواطنٍ من الدرجةِ العاشرة.

أرجوكَ لا تعتبر الأمرَ شخصياً، الحياةُ فرصةٌ وعلينا استغلالها.

بالفعل.. تافهٌ وحقيرٌ أنا .

اعتبرتُ زواجها من رجلٍ آخر بعد ثلاثِ سنواتٍ من الحُبِّ والنبيذِ أمراً شخصياً ..

تلكَ الفتاة..

كان لها غمازتانِ قادرتانِ متى ضحكت أن تنسياني الدنيا بما فيها..

كانَ لها قدمانِ صغيرتان تزيّنُ يسراهمَا دائماً بخلخالٍ ذهبي كلّما قبّلتُ أصابعهما ذابت في فمي، وكانَ لها شامة تحت سرّتها كلما داعبتها قليلاً.. شهقت.

اللعنة..

كيفَ لي ألا أعتبرَ تلكَ الشهقةَ أمراً شخصياً.

المالُ ينتصر.

أمامَ المالِ لن تنفعكَ مغامراتُ ملفيل..

قصصُ إيتماتوف تسقطُ من الجولةِ الأولى ولو كتبَ ديكنز تلكَ الحكايةَ عن عشرين مدينة لما نفعكَ الأمر.

أمام المالِ تنهارُ قلاعُ مارتن وتحترقُ سفن مينة وتسقط ليبرالية أورويل..

أيّها المغفل، دولٌ بأسرها يهزها المالُ فما الذي ترتجيهِ هنا؟

المالُ كانَ يحكمُ النفوسَ في ما مضى، هو يحكمُها الآن، ولن يتغيرَ شيءٌ بهذا الخصوصِ في المستقبل .

الفقرُ (أحياناً).. لن يمنعَ امرأة جميلة من الإعجابِ بكَ ومنحكَ جسدها على سريرٍ من أعشابِ البراري، لكنهُ سيقفُ سدّاً صارمَاً في وجهكَ إذا ما فكّرتَ يوماً أن تتزوجها.

لهذا وغيرهِ من مليون سببٍ لا أجد شيئاً جميلاً في الفقر. لا شيء.. أبداً.. وقطعاً.

المالُ ينتصر.

.مبروك .. كانت أياماً جميلة وأتمنى لكِ أياماً جميلة.

قلتُ وأنا أنصرف .

في قلبي، لم اكن أتمنّى سوى أن تذهبَ هذه العاهرة إلى الجحيمِ أو أن تلهثَ خلفي نادمة وتعتذر.

.سامحني أرجوك، كانت لحظة ضعفٍ ولن أسمحَ لها بهزيمتي.

سأبقى امرأتكَ حتى آخر العمر.

خلفي، لم يكن أحدٌ يلهثُ ما عدا جحافلِ الخيبة المدجَّجةِ بالكآبة.

مشيتُ.. مشيتُ.. ومشيتُ ..

صعدتُ درجاتِ الطوابقِ الخمسة درجة.. درجة ..

فتحتُ بابَ غرفتي المنزويةِ يسار سطحِ العمارةِ في جرمانا والمطلةِ على دمشق العاصمة.

تركتُ البابَ مفتوحاً كما اعتدتُ أن أفعلَ في الصيفِ مذ سكنت هذه الغرفة..

استلقيتُ على السرير ..

كعادتها ..

استقبلتني تلكَ الكتبُ بأغلفتها العتيقةِ مع زهرة الحبقِ الذابلةِ ومروحة السقف التي تدورُ بكسل.

ربما غفوتُ لساعتين قبلَ أن أستيقظَ على صوتِ الولاعة.

كانت جالسة على الكرسي قربَ السريرِ تُدخِّن.

تريّثتُ بعضَ الوقتِ لأفهمَ ما جرى ويجري.

نهضتُ وأشعلتُ سيجارة ثم عدتُ للجلوس على طرفِ السرير.

.ماذا تريدينَ الآن؟

قلتُ دونَ أن أنظرَ في عينيها.

.ليلة أخيرة معك.

قالت وأضافت..

.سأشتاقُ لكتبكَ وأحاديثكَ عنها، سأشتاقُ لهذهِ الغرفة ولياليا فيها، سأشتاقُ لكلِّ الأفلامِ التي شاهدناها سوياً في شتاءاتٍ ماضية.

بهدوءٍ وقفتُ ثمَّ أمسكتها بمعصمها مُتعمِّداً إيلامهَا.

قرأتُ الخوفَ في عينيها لكنها لم تنطق بحرفٍ ولا أنا فعلت.

كنتُ أسوقها سوقاً ثمَّ دفعتها خارجَ الغرفةِ بشيءٍ من القوةِ وصفقتُ البابَ خلفها.

كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي لم أشعر فيها بحاجةٍ لوقتٍ إضافي.

***

الفستان الأخضر

عادت زوجتي من التسوقِ وكنتُ أحاولُ كتابة قصةٍ لعينة.

لعلَّكم تدركونَ كم هيَ صعبةٌ كتابة قصة.

لا يهمُّ إن حدثت معكَ أو مع غيركَ أو عليكَ تخيّلها.

صحنُ السجائرِ كانَ مُمتلئاً بأعقابها أمّا أبريقُ الماءِ فكانَ بارداً وطعمُ المتةِ أصبحَ مُرَّاً .

قبلَ أن تذهبَ إلى السوقِ توسَّلت كي أذهبَ معها لكنني كنتُ واضحاً في هذهِ الجزئية منذ خطوبتنا:

. عليكِ يا عزيزتي أن تدركي كرهي الشديد للتسوقِ والمراكزِ التجاريةِ والألبسةِ والبائعين.

لكنّها في كلِّ مرةٍ تنسى .

القصة التي أريدُ كتابتها لا أعرفُ عنها شيئاً.

لا أفكار مسبقة، لا تفاصيل جاهزة، لا مشاهد متخيلة ..

أمامي فقط بياضُ الصفحةِ وأنا مُتربّعٌ على الأريكةِ أمارسُ اليوغا علّ اللغة تنجدني .

قالت زوجتي :

.حبيبي، اشتريتُ هذا الفستانَ الأخضر، أليسَ جميلاً؟

كنتُ مغمضَ العينينِ مُتَّخذاً وضعية زهرة اللوتس وفي فمي سيجارة .

نهرُ التنينِ وحقولُ الأرزِّ والرهبانُ البوذيون وقمة التيبت اختفوا من ذهني في لحظةٍ واحدة ففتحتُ عيني.

قلتُ:

.إنَّهُ جميلٌ جداً.. ما أحلاه، ثم أسدلتُ جفنيّ مُحاولاً الانتقالَ إلى مرحلةِ النيرفانا وبالتالي الوصول إلى مكانٍ في أقاصي العقلِ يساعدني في كتابةِ قصةٍ عظيمةٍ لكنَّ زوجتي عادت لتقول :

.هل تعتقدُ أنّهُ غامقٌ زيادة عن اللزوم؟

.لا لا أعتقدُ ذلك.. لونهُ رائع.

أجبتُ مدّعياً الاهتمامَ وكأنني قادرٌ على التميّزِ بينَ الألوان.

صحيحٌ أن برجي هو الأسد لكنني في الألوانِ ثورٌ حقيقي.

.سأجرّبهُ لتراهُ كيفَ يبدو علي.

.حسناً تفعلين ..

حمدتُ الله أنّها ستنشغلُ قليلاً فلربما تمكّنتُ من التقاطِ الفكرة.

لم أكد أنهي فكرتي عن التقاطِ الفكرةِ حتى عادت ووقفت أمامي مرتدية الفستان .

. ما رأيك ؟

. إنه فستانٌ رائع، ألفُ مبروك.

. حقاً تراه كذلك؟

. حقاً أراه ..

. لكن أنظر إلى الزركشاتِ عند الخصرِ، لا تعجبني .

. بالفعل، هذهِ الزركشات مبالغٌ فيها .

أجبتُ موافقاً رأيها ومشعلاً سيجارة جديدة.

لكنها قالت :

. ألا ترى أن هذهِ الزركشات هي ما يعطي الفستانَ طابعاً مميزاً؟

قلتُ وأنا أهزُّ رأسي على طريقةِ الهنود :

. هذه الزركشاتُ يا عزيزتي هي كلمة السرِّ في روعةِ الفستان، بالفعل، هي ما يمنحهُ رونقهُ .

راحت امرأتي تتمشى جيئة وذهاباً أمامي ثم قالت :

. ربما عليّ أن أعيدهُ إلى المحل، لم يعد يعجبني .

قلتُ وأنا أصبُّ الماءَ الباردَ في كأسِ المتةِ المنتهي الصلاحية :

.لا بأسَ في ذلك، أعيديهِ واشتري غيره.

.وهذا ما سأفعله ..

قالت ثم صرخت كمن اكتشفَ الإلكترون:

.عندي فكرة، لم لا أحتفظُ بالفستانِ دونَ الزركشات؟

بإمكاني إزالتها دونَ أن أمسَّ جودتهُ وبهذا أضربُ عصفورين بحجرٍ واحد .

تمتمتُ بصوتٍ خفيض: "إنهم ثلاثة يا عزيزتي، ثلاثة".

.عفواً، ما الذي قلتهُ ؟

.قلتُ إن هذهِ أعظمُ فكرةٍ على الإطلاق.

نحتفظُ بالفستانِ ونزيلُ الزركشات، هيا يا أميرتي، باشري العمل .

.لكن باعتقادك.. ألن تؤثّرَ إزالة الزركشاتِ على جمالهِ وخصوصيته؟

هرشتُ رأسي كما لو كنتُ آلبرت لحظة ولادةِ النسبيةِ العامة وقلت:

.بالفعل ستؤثر، دعينا نحتفظ بها.

دخلت زوجتي إلى المطبخِ فتنفستُ الصعداء.

عدتُ إلى التركيزِ والطاقة الإيجابيةِ في الكونِ بحثاً عن قصةٍ هنا أو فكرةٍ هناك لكن صوتاً من المطبخِ نادى وكنتُ أعرفُ صاحبته:

.حبيبي، لقد غيرتُ رأيي، لم يعد يعجبني الفستان. هل تذهبُ معي إلى السوقِ كي أعيده؟

الباخرة

بعدَ اجتيازكَ للمدينةِ الرياضيةِ في اللاذقيةِ على طريقِ الشاطئ، ستجدُ منعطفاً إلى اليسار. هذا المنعطفُ السحري حين تسلكهُ سيقودكَ باتجاهِ الخضر (عليه السلام)، ليس شخصياً، إنما باتجاهِ مقامٍ له هناكَ مبنيّ على تلَّةٍ مجاورةٍ للبحر.

في أزمنةٍ بعيدةٍ مطلعَ الصبا كنّا عصبةً من المنتقلينَ حديثاً إلى صفوفِ المرحلةِ الإعداديةِ وقد اعتدنا الفرارَ من المدرسةِ بين الحينِ والحين والذهابَ إلى هناك كي نسبحَ في المياهِ الغميقة.

قبالةَ شاطئِ الخضر، وعلى مسافةٍ لا تقلّ عن الثلاثمائةِ مترٍ كانت ترقدُ في سلامٍ ولسنينَ طويلة باخرةٌ بقيت منها أجزاءٌ فوقَ سطحِ الماء .

فتياناً كنّا وكانَ الكونُ ملكنا.

ما أن نصلَ حتى ننطلقَ كأسماكِ القرشِ باتجاهِ اليمِّ ثمّ نغوصُ إلى الأعماقِ وبعدَ مناوراتٍ بسيطةٍ قربَ الصخورِ نشقّ طريقنا باتجاهِ الباخرة ذاتِ الجسدِ الصدئ والقابعةِ هناكَ كجزيرةٍ مهجورةٍ .

في البداياتِ كانت رحلاتنا جماعية تضمُّ العصبةَ كلها ثمَّ اقتصرت فيما بعد على صديقي الذي شاركني عشقَ البحرِ وعليَّ فقط .

ذاتَ مرةٍ، وكنا على وشكَ الوصولِ إلى الباخرةِ لمحنا جسداً هلامياً عملاقاً قربَ بوابتها وكأنهُ يحرسها .

قلت :

.ألديكَ فكرة عن ماهية هذا الشيء؟

بلعَ صديقي ريقهُ الممزوجَ بالملحِ وأجاب بالنفي قبلَ أن يسألني بدوره: .برأيكَ ما يكون؟

فما كانَ مني إلا أن بلعتُ ريقي الممزوج بالملحِ وأجبتُ بعدمِ المعرفة.

ولأنَّ صديقي لم يكن أوديسيوس.. ولأنني لم أكن آخيل.. وضعنا أقدامنا في مؤخراتنا وعدنا بسرعةِ الطوربيدِ إلى الشاطئ .

بعد أسبوعٍ كاملٍ تغلَّبنا على خوفنا وسبحنا إلى هناك . طبعاً لم نجد شيئاً وما كانَ ذلك الجسدُ العملاقُ باعتقادي إلا واحداً من قناديلِ البحرِ التائهةِ بسببِ تيارٍ أو عاصفةٍ ما. بهدوءٍ تقدمنا باتّجاهِ السلّمِ الحديدي الذي يقودُ إلى سطحِ الغرفةِ الوحيدةِ المتبقية.

لم تكن غرفةً بالمعنى الحرفي للكلمة، كانت بقايا غرفة أكلها الصدأ واكتست بِفعلِ الشمسِ والملحِ والرياحِ البحرية طابعاً روائياً مدهشاً .

من هناك كنَّا نعودُ ونقفزُ في الماءِ على رؤوسنا لمراتٍ ومراتٍ ثم نستسلمُ للاستلقاءِ تحتَ أشعةِ مركزِ مجموعتنا في مجرةِ دربِ الحليب.

أصبحت هذه الرحلة عادة أدمنَّاها. لساعتين أو ثلاث نستنشقُ رائحة البحرِ وكأننا فوقَ جزيرةٍ نائية. نطالعُ الشاطئ البعيد ونغني أحياناً..

.يا ماريا يا مسوسحة القبطان والبحرية.. يا مسوسحة القبطان..

. لا أجمل من نساءِ البحر.. أقولُ لصديقي لكنهُ لا يقول شيئاً مكتفياً بمراقبة بعضِ النوارس حولنا.

حينَ نعودُ أدراجنا كنّا نسمعُ للموجِ وهو يضربُ حوافَ الجسدِ الهرمِ للباخرةِ نواحاً حزيناً . قلة من كانوا يزورونَ تلك السفينةِ ويصلونها العشقَ كما كنا نفعل .. لم أعد أذكرُ على وجهِ الدقةِ متى حلّتِ الكارثة لكنهم ذاتَ يومٍ بدأوا بانتزاعِ الباخرةِ باستخدامِ سلاسل فولاذية عملاقة. بعضهم قال إن رجلَ أعمالٍ ثري اشترى حديدها ليعيدَ تصنيعهُ بثمنٍ بخس. بعضهم قالَ إن الحكومة الحقيرة هي من فعلت ذلك . مع كلّ قطعةٍ كانوا ينتزعونها.. انتزعوا شيئاً من أرواحنا. هكذا كنا نراقبُ رفيقتنا العتيقة تختفي رويداً رويداً حتى غدت بعد صيفٍ كاملٍ مُجردَ شبح.

كلما ذهبتُ إلى هناكَ تمزق قلبي من ألمِ تلك الذكريات. أشاهدُ نفسي فتيًّاً مُحَلِّقاً في الجو بين البحرِ وغرفةِ القبطانِ قبلَ أن ألجَ الماءَ ثمّ أعودُ لأُخلَقَ من جديد .. كانت أياماً تُعاش.

***

فتاةٌ بريطانية على شاطئ البدروسية

لمحُتُ الخالَ (أبو محمد) قادماً صوبَ (الشاليه) بصحبةِ رجلٍ وامرأةٍ شقراوين.

كانَ أيُّ أجنبيّ في البدروسيةِ مثارَ دهشةٍ للمصطافينَ ولنا نحنُ الذينَ نعملُ هناكَ في صيدِ السمكِ وتأجيرِ الشققِ للسواحِ القادمينِ كي يستمتعوا ببحرِ اللاذقيةِ في تلكَ المنطقةِ المطلةِ على رأسِ الخنزيرِ قربَ الحدودِ مع تركيا.

خرجتُ من خيمتي لأعاينَ الوضعَ فطلبَ الخالُ منّي أن أقولَ للرجلِ الإنكليزي إنّ إيجارَ اليومِ الواحدِ في (الشاليهِ) ألفُ ليرةٍ سورية.

بإنكليزيتي الركيكةِ أوصلتُ المعنى للسائحِ وكانَ اسمهُ (تاكوين).

بعدَ أن عاينَ الشقة جيداً وافقَ على الدفع.

هكذا.. أصبحَ تاكوين وصديقتهُ (أماندا) ضيفينِ عندنا وإكرامُ ضيفةٍ كأماندا هو مضاجعتها خمس مراتٍ في الليلةِ الواحدةِ لكن هيهاتَ أن ألفتَ انتباهها أنا الطالبُ المنتقلُ حديثاً من المرحلةِ الإعداديةِ إلى الثانوية.

أيُّ حظٍّ هذا الذي أرسلها مع تاكوين؟

.هل من الممكنِ أن يموتَ اليوم.على سبيل الحظ.فتصرخُ هي طلباً للنجدة؟

قلتُ لنفسي ورحتُ أتخيلُ كيفَ سأهرعُ إليها لكن.. بعدَ فواتِ الأوان.

أجسُّ نبضهُ النتن فلا أشعرُ بشيءٍ وبعدَ دقيقةِ صمتٍ أخبرها أنهُ غادرَ إلى الجحيمِ ثمَّ أضمُّها إلى صدري حتى ألتصقَ بنهديها العرمرمينِ اللذينِ ما كانا بحاجةٍ لحمالةِ صدرٍ حتى يشرئبا مثلَ جرمينِ منيرينِ في سماءِ الكوكب.

طبعاً.. لم يمت ابنُ الإنكليزيةِ وبينما كانت تداعبهُ ليلاً كنتُ أنا سهراناً أمامَ النارِ التي أشعلتها على الشاطئ أدخنُ وحيداً، كئيباً، (مشغول البال وحزين).

صباحاً.. توجّهتِ الفتاة وصاحبها إلى البحرِ ليسبحا.

كانت أماندا الرائعة ترتدي (البكيني) ولمن لا يعلمُ طبيعة سواحِ البدروسيةِ فجلّهم من المحافظينِ المتدينين الذينَ تسبحُ نساؤهم مرتدياتٍ ملابسَ الخزانة كلها.

خمسُ دقائقٍ كانت كافية لتجتمعَ أمّة (الاحتشام) في المكانِ الذي تسبحُ فيه أماندا.

عندما شاهد الخالُ ما حدثَ انفجرَ ضاحكاً وطلبَ منّي أن أنزلَ القاربَ الصغيرَ إلى الماءِ لأصحبها في نزهةٍ بحريةٍ بعيداً عن عيونِ المفترسين الذينَ تحلّقوا حولها.

نظرتُ إليهِ ببلاهةٍ وقلت:

.كيفَ سأدعوها للإبحارِ معي وصاحبها برفقتها؟

أكّد الخالُ أنني غشيمٌ في هذه الأمورِ وأنَّ الأجانبَ لا تعنيهم هذه الشكليات.

اقتنعت.

أنزلتُ القاربَ إلى الماءِ ثم بدأتُ التجديفَ صوبها وما أن دعوتها إلى الصعودِ حتى وافقت على الفور.

مددتُ يدي كي أساعدها فلمستُ بأطرافِ أصابعي أطرافَ نهدها الرجراج.

رميتُ نظرةً صوبَ المكانِ الذي يجلسُ فيه الخال وقلتُ متمتماً:

.روح يا شيخ.. الله يوفقك دنيا آخرة.

كانَ صدرها الطيبُ إسفنجياً لا هو بالطري ولا القاسي ونظراً لتجربتي النسائية المتواضعة في تلكَ المرحلةِ توترت أموري على الفور والحمد لله أنني كنتُ ارتدي سروالاً قصيراً فضفاضاً وإلا لتحولتُ إلى مادةٍ للسخريةِ أمامَ هذه السيدة الإنكليزية النبيلة.

ساعةٌ من الزمنِ مرّت وأنا مع أماندا في عرض البحر.

النسيمُ البحري يداعبُ شعرها الأشقرَ وهي تتأملُ الأمواجَ الرقراقة بينما كنتُ أنا سارحاً في الأزرقِ الساطعِ من عينيها أقولُ مع ابنِ القباني:

.لو أنّي لو أني بحّار

لو أحدٌ يمنحني زورق

أرسيتُ قلوعي كلَّ مساء

في مرفأ عينيك الأزرق.

طبعاً لم تفهم أماندا شيئاً مما قلته، أنا بالنسبةِ إليها مُجرّدُ فتى بالكادِ يظهرُ شارباه.

لم يعنِ لها شيئاً ذلكَ اليوم ربما، آه يا أماندا لو تعلمينَ كم عنى لي.

استيقظتُ في اليومِ التالي وكلّي لهفةٌ لمشوارٍ بحريٍّ جديدٍ معها لكنَّ أماندا وصديقها كانا قد غادرا.

قلتُ للخال:

. ألم تحاول إقناعهما بالبقاء حتى لو مجاناً؟ فراحَ يسخرُ منّي متهماً إيّاي بالعشق.

أنا، بالفعلِ كنتُ عاشقاً لأجملِ نهدين مرّا عبرَ العصورِ البحريةِ صاحبتهما فتاة بريطانية ألتقيتها صدفة على شاطئ البدروسية.

***

مسعد يا تنوم

كنتُ عائداً إلى المنزلِ بعدَ منتصفِ الليل كي أمضي ما تبقى من سهرة رأس السنةِ مع الأهلِ بعد أن قضيتُ الجزءَ الأولَ منها بصحبةِ أصدقائي نشربُ النبيذَ (المز) ونرقصُ على أنغامِ الأغاني التي نواكبها بأصواتنا العذبة التي تشبهُ (جاروشة البرغل) .

ولأنَّ لقريتي صيتاً كبيراً بمشاكلها والشجاراتِ التي يجيدها أهلها كانَ نادراً أن تلمحَ أحداً غريباً فيها بعدَ المساء.

حينَ طلبتُ من سائقِ سيارةِ الأجرةِ أن يوصلني من المفرقِ إلى آخرِ الطريقِ فرّ مسرعاً كأنهُ رأى شبحاً.

بعدَ قصتي هذهِ بزمنٍ طويلٍ أجريتُ في بلادِ الاغترابِ خلالَ عملي كصحفي مقابلة مع السيناريست قمر الزمان علوش.

قبلَ أن نبدأ الحوارَ سألني عن اسمِ قريتي في سوريا وعندما أجبته ضحكَ وقال:

. من بسنادا (وا عيني)!.. بلا مشاكل ها .

ابتسمتُ مُستغرباً معرفتهُ ببسنادا ثم سألته..

.وحضرتكَ من أين؟

.من جبلة ..

أجابَ فقلتُ مازحاً:

.حمائمُ سلام البركة.

ضحكنا كثيراً وكانَ لقاءً جميلاً امتدَّ قرابة الساعاتِ الثلاث .لستُ متأكداً إن كانَ يذكرهُ .تحدثنا فيهِ كثيراً عن الغربةِ والشعرِ والقصةِ و مسلسليهِ (هوى بحري) و (نزار قباني) .

تابعتُ سيري إلى المنزلِ وسطَ القرية فلمحتُ من بعيد رجلين يسندُ أحدهما الآخر.

لم يكن من الصعبِ التخمينُ أنّ المسنودَ سكرانٌ وصديقهُ يحاولُ أن يوصلهُ إلى المنزل.

عندما وصلتُ قربهما كنّا بمحاذاةِ (دكان) أبو زهير دلعونة .

عرفتُ الشابَ الذي يسندُ صاحبهُ فقد كانَ بيننا سلامٌ عابرٌ أمّا السكران فلم أتعرف عليهِ سوى من الوجه.

عندما رآني الصاحي قال:

. ساعدني كي نوصلهُ إلى منزلِهِ أرجوك، هذا المعتوه شربَ أكثرَ من لترِ عرقٍ وحدهُ .

لبّيتُ دعوتهُ وسندتُ السكرانَ معهُ حيثُ ساعدنا قصرهُ وخفّة وزنهِ على القيام بذلكَ دونَ عناءٍ كبير.

راحَ الرجلُ يترنحُ كثيراً ويطلقُ صيحاتٍ غريبة بينما كنا نمشي ثم نظرَ إلى صديقهِ وقال له بصوتٍ جهوري :

.كس أمك، أنتَ السبب، أنا لستُ سكراناً أيها الأحمق .

بعدها نظرَ إليَّ بعينينِ جاحظتينِ مُخيفتين.

توقعتُ أن أنالَ شتيمة كتلكَ التي نالها الرجلُ لكنَّ السكرانَ ودونَ سابقِ إنذارٍ صفعني صفعة سمعَ دويها سكانُ المريخِ والكواكبِ المجاورة.

بكلِّ عزمِ وجبروتِ الغضبِ لكمتهُ على وجههِ فدارَ بسببِ ترنّحهِ وسكرهِ وقوةِ اللكمةِ وسقطَ على ظهرهِ مغشياً عليه.

نظرَ صديقهُ إليَّ مرتعباً وصاحَ بخوف :

.قتلتهُ يا ابن الرّب ..

حدّقتُ بجثتهِ الممدّدة وسطَ الشارعِ ومصباحُ عامودِ الكهرباء يلقي فوقها ضوءاً كئيباً، ثم بدأت تتسارعُ الأفكارُ في رأسي.

أشعلتُ سيجارة ورحتُ أفكّرُ مُضطرباً:

.أحقاً مات؟!لا يمكنُ ذلك.

إنّها مجردُ لكمةٍ، لكنهُ سكران..

ربما كانَ تأثيرُ سقوطهِ على إسفلتِ الشارع قوياً فلم يتحمله.

بدأ العرقُ يتصبّبُ منّي رغمَ الطقسِ البارِدِ ...

قال الشابُ مرتعداً من الخوف ..

.أنا لا علاقة لي، أنا لست مسؤولاً..

كنتُ أريدُ مساعدتهُ فقط..

أنتَ قتلته، أنت، أنت ..

فجأة..

قاطعهُ صوتُ السكرانِ وهو ينهضُ بتثاقلٍ مُتّكئاً على كفّيهِ وركبتيهِ مغنّياً..

(مسعد يا تنور يُمه ليله.. مسعد يا تنور، يا مجمّعَ الزينات.. مسعد يا تنور)

ثمَّ مشى مُترنّحَاً غيرَ آبهٍ بي أو بصديقه .

كانت تلكَ الأغنية مشهورة جداً حينها .

بينما راحَ يبتعدُ وقفنا مَذهولَين نسمعُ صوتهُ المُتهتكَ بتأثيرِ الكحولِ ثم غرقنا في ضحكٍ هستيري.

قلتُ: "ألن تساعدهُ في الوصولِ إلى المنزل"؟

ودّعني وهو يصيحُ فرحاً بعودتهِ إلى الحياة..

.(ستين عمرو ما يوصل)...

ثم راحَ يغنّي هو الآخر..

مسعد يا تنور..

هَل مِنَ المُمكِنِ؟

ذاتَ يومٍ سألتني إحدى الجميلاتِ عنِ الفرقِ ما بيني وبينَ غيري من الرِّجالِ كي تثقَ بي.

كُنّا جالِسَينِ في مقهى الصحافةِ بجامعةِ دمشق .

أشعلتُ سيجارةً وقلت:

-غيري سيُحدِّثُكِ عن أمِّ غوركي وآلامِ تولستوي وساذجةِ تشيخوف.

سيفتحُ معكِ عشرين موضوعاً عن كوبا غيفارا وكاسترو وإن كانَ مُتابعاً للسينما سيدهشكِ بمعرفتهِ لأفلام هيتشكوك وفليني وودي آلن .

سيُمضي معكِ الساعاتِ الطوالِ في نقاشِ العدمية وعبثيةِ جان بول سارتر .

قد لا تصدقينَ ما أقولهُ لكنّني أقولُ الحق.

غيري سيستعرضُ أمَامَكِ تاريخَ البشريةِ ليسألكِ في النهاية:

-هل مِنَ المُمكِنِ أن أنزعَ ملابِسَكِ الداخلية؟

ابتسمت الفتاةُ بِشَيءٍ من الحياءِ ثمّ سألت:

-وأنت، ما الذي يجعلكَ مُختلفاً؟

سحبتُ آخرَ نَفْسٍ من سيجارتي ثمَّ سحقتها في منفضةِ الرمادِ وأجبت:

- أنا يا صديقتي لن أهدرَ دقيقةً من وقتكِ في أيّ حديثٍ هامشي.

سأسألكِ دونَ لفٍّ ولا دوران:

- هل مِنَ المُمكِنِ أن أنزعَ ملابِسَكِ الداخِلية؟

***

إلى بابِ جَنَّة

مِن (المعيصرة) إلى (بابِ جنَّة) الطَّرِيقُ غَارِقٌ فِي الضَّبَاب.

مَن كانَ هُناكَ قبلَ سَبعينَ عَامَاً ظَنَّ لِوهلَةٍ أنَّ أشجَارَ (الشَّمسِي) ذلكَ الجَبلُ العَجيبُ، تَطير.

انقشَعَ الضَّبابُ رُويدَاً رُويدَاً فَبَدَت (كومَات الدِّيس) مُنتظرةً صَيفاً قادِمَاً لِتَحبَلَ مِنهُ، أمَّا عَذراءُ أرضِنَا (كرم الدّبّة) فَرَاحَت أورَاقُهَا تَميلُ مَع رِياحِ الصُّبحِ القارِصَة.

فِي غابةِ (الحِرشِ) مَقامُ المكزونِ السِّنجاري يَرنو كمَا كانَ مُنذ مِئاتِ السِّنينِ صَوبَ اللَّلاذقيةِ البعيدةِ ونبعةُ الضَّيعةِ زادَ دَفقُها إثرَ اللَّيلِ المَاطِر.

وَضَعت أمُّ سميرٍ أبريقَ الشَّاي عَلى مِدفأةِ الحَطبِ ريثمَا ينتهِي زوجُهَا مِن ارتداءِ مَلابِسِه.

جلسَ الرَّجُلُ على كرسيِّ الخيزرانِ الصَّغيرِ وَلَفَّ سِيجارةً دَخّنَهَا وهوَ يُطالعُ مِن شقِّ البَابِ الخَشَبيِّ حَالة الطَّقس.

بعدَ أن أفرَغَ كأسينِ مِنَ الشّرابِ السّاخنِ داخلَ جوفهِ انطلقَ إلى شُغلهِ وكانَ أبو شهدات يَسعلُ أمامَ منزلهِ المُجاورِ فألقى تحيةَ الصَّباحِ وَمَضَى.

لم يَكن قد مرَّ على وفاةِ جَدِّي مُحمد سوى شهرين.

الحزنُ قابعٌ في قلبِ زينبٍ زوجتهُ التي وجدت نَفسها وحيدةً مع ابنتينِ وفتىً صغير.

هذا القلبُ نفسهُ أخبَرَهَا أنَّ الحُزنَ لن يُطعمَ الصِّغارَ فَمَضَت مَع تباشيرِ الصَّباحِ إلى الأرضِ تَزرعهَا.

ليلى وعليا سَاقتا القطيعَ الصغيرَ إلى المَراعِي أمَّا أبي فقد ارتدى حذاءَهُ الطويلَ وإلى مدرستهِ في ناحيةِ صلنفة ذهبَ ماشِياً يأكلُ البردُ مِن أنفهِ وخدّيهِ.

.(باروووود،، اهربوا)..

صاحَ أبو سمير بِأعلَى الصَّوتِ وَهُم يُفَجّرونَ الصُّخورَ الكَبيرةَ في الجبلِ المُطلِّ على القريةِ ليستخدِموا القطعَ في أعمالِ البِناءِ وَيُمهّدُوا الأراضي للزِرَاعة.

على الرَّغمِ مِن خُطورةِ العملِ إلَّا أنَّ أبَا سميرٍ كانَ مُواظباً عليهِ حتى انقضَاءِ النَّهارِ وقد تَسبَّبَ لهُ بمشاكلٍ في سمعهِ جرَّاءَ الانفجاراتِ العنيفةِ التي كانَ يُحدِثُها البارودُ ناهيكَ عن خطورةِ الإصابةِ بِفتافيتِ الصُّخورِ المُتَكَسِّرَة.

.أمَا آنَ لكم أن تنتهوا من هذا العَمل؟

سألَ أبو نصر وهو يفتلُ شاربيهِ الغزيرين .

. ما زال الوقتُ مُبكِّراً والصُّخورُ هنا كبيرةٌ جداً، اللهُ وحدهُ يعلمُ متى سَنُجهزُ عليها .

مَرَّرَ أبو نصر لِسانهُ على ورقة التَّبغِ الصغيرةِ ثُمَّ فتلهَا بلمسةٍ واحدةٍ مِن سُبَّابتهِ وإبهامهِ وأشعلها مَاضياً في طريقهِ إلى أرضِه.

بالكادِ تعبرُ سيارةٌ من هنا خلالَ اليومِ كلِّه.

في الشِّتاءِ قد ينقضِي الأسبوعُ دونَ أن يسمعَ سُكَّانُ بابِ جنّة في منتصفِ القرنِ الماضِي صوتَ آليةٍ مُتحرِّكة.

استفهمَ أبو أيمن من ياسين القاضي عن أحوالِ المدينةِ بعد أن زارها الأخيرُ قبلَ أيَّامٍ وقد سمعَ أبو شهدات حديثَهُمَا فرَمَقَهُما بنظرةِ استهزاءٍ وقال:

.هل سافرَ أحدٌ مِن سُكَّان هذهِ القرية إلى العاصِمةِ دمشق؟

هزَّ الرجلانِ كتفيهِمَا باستغرابٍ وَتَعجُّبٍ ليقولَ أبو شهدات عِبارتَهُ الخَالدة:

.وماذا رأيتم من القطرِ السّوري إذاً؟

بقيَ الجوُّ عابِقاً بالغيمِ الأزرقِ المُنذرِ بمطرٍ غزِير.

عادَت ليلى وعليا بِقطِيعِهِمَا الصَّغيرِ إلى البيتِ كَما عادَ أبي من مدرستهِ ليتَحلَّقوا جميعاً حولَ مِدفأةِ الحَطبِ ويتناولوا الطَّعام .

في المنزلِ الكبيرِ مُنتصف الضَّيعةِ كانت جُموعُ آل شحادة تسهرُ لسردِ الحكاياتِ في اللّيالي الحَالِكة .

تجلسُ النساءُ مع النساءِ يثرثنَ في شؤونِ الأرضِ والزرعِ والصِّغارِ حيناً وحيناً يَستمعنَ إلى أحاديثِ رجالِ العائلةِ المَالِكة.. عفواً.. رجالِ العائلةِ الأشدَّاءِ الذينَ جُبلَت عُروقهم من ترابِ بابِ جنَّة المُطرَّزِ بالشُّوحِ والعذرِ والحَورِ والروبينِ، وفي ذلكَ المَجلسِ كانَ هنالكَ، راديو .

السَّهرُ على ضوءِ قنديلِ الكازِ وصوتُ الحطبِ المُحترقِ تعبُّ من تبغكَ العربي وتشربُ الشّايَ على مهلٍ.

عليكَ أن تسألَ نفسكَ بِجَدٍّ.. ما الذي تعرفهُ عن ذلك؟

أخبَرَني أبِي أنَّه استمعَ في مثلِ هذا الجوِّ لأغنية (زي الهوى) وكانت تُبثُّ لأوَّلِ مرّة.

بعدَ أن حصلَ على شهادتهِ الثَّانويةِ غادرَ إلى العاصمةِ وعلى حدِّ تعبيرِ (أبو شهدات)، رأى القطرَ السوري.

نالَ إجازةً في الجغرافيا من جامعة دمشق ليتزوَّجَ بَعدها ويشاركَ أمِّي المسؤوليةَ الكَاملة عن قدومِي إلى هذا الكوكبِ البائسِ ذاتَ يومٍ من أيَّامِ 1982 .

بابُ جنّة ما زالت بَابَاً مُشرَّعَاً للجنَّةِ وإن كانَ بِمقدارٍ أضيق فكثيرةٌ هي المُتغيّراتُ التي طرأت والشَّخصياتُ التي حدَّثتكُم عنها في هذهِ القصَّةِ القصيرةِ اختزنتهَا ذاكرتِي من أحاديثٍ ظلَّت قابعةً في رأسِي من عهد الطفولة.

على الرغمِ مِن أنَّني لم أعِش في هذهِ الأيقونةِ الطبيعيَّةِ إلا لِمَامَاً غيرَ أنَّها تظلُ مسقطَ رأسِ حازمٍ الأكبرَ وابنهِ جدِّي مُحمَّد وضاحي أبي.

كُلَّمَا زُرتُها رأيتُ النجومَ قريبةً بشكلٍ لا يُصدَّق فأمُدُّ يدي مُحاولاً قطفَ واحدةٍ وهناكَ حيثُ الدَّربُ الذاهبةُ إلى (الرُّويدِيف) فيروزُ قاطِنةٌ أبدَ الدَّهرِ تشدو ..

بتشوف بكرة بتشوف.

***

العَاصِفَة

كنتُ أضَاجِعُ ثَلاثَ نِسَاءٍ قبلَ أن يُوقظَنِي صَاحِبُ المَقهَى المُجَاوِرِ لِكُوخِنَا البَحرِيّ وَهوَ يَصرُخُ :

.قارِبُكُم يَغرَق.. قَارِبُكُم يَغرَق..

كَانَ الكُوخُ الذي نَقطنُ فيهِ الخالُ أبو محمد وأنَا يتألَّفُ مِن طَابِقَينِ لا عَلاقةَ لَهُمَا أبَدَاً بِطَابِقَي هَيفَاء البِيطار فَهُمَا طابِقَانِ حَقِيقِيَّانِ وَإن كَانَا مِنَ الخَشَبِ وَأورَاقِ شَجَرِ الكِينَا.

الطَّابِقُ الثَّانِي واسمهُ (العِرزَال) مَقرُّ نَومِي طِوالَ الصّيفِ حينَ عَمِلتُ في البَدرُوسِيَّة .

انتَشَلتُ نَفسِي بِشَقِّ الأنفَاسِ مِنَ الحُلمِ الرَّائِعِ وَصُوتُ جَارِنَا عبدُ القادرِ يَدقُّ بِعُنفٍ طَبلَةَ أُذنِي .

لَقَد حَلَّت طَلائِعُ المَسَاءِ مُنذُ دقائِقٍ عَلَى الأرجَح.

.اللَّعنةُ، مَا الَّذِي يَقولُهُ هذا الأبلَه، وَكيفَ سَيغرقُ القارِبُ الصَّغير؟

رُحتُ أتساءَلُ ومَا زلتُ مُستلقِياً عَلى الإسفنجةِ الرَّطبة.

مِن بيْنِ أوراقِ الشَّجرِ طَالَعتنِي بَعضُ الغيومِ الدَّاكنةِ ثمَّ بَدأ جَسَدِي يَشعرُ بِرَشَقَاتِ الرِّياحِ الغربيَّةِ القويَّةِ البارِدَة .

أخيراً استدرَكَ عَقلِي مَا جَرَى قُبيلَ غَفوتِي بِسَاعَة.

أحَدُ المُصطَافِين جَاءَ إلى حيثُ أجلسُ على الشاطئِ وطلبَ أن يَستأجِرَ القارِبَ الصَّغيرَ لساعتينِ أو ثَلاث.

دفَعَ المَبلغَ المُستَحقَّ ثمَّ سَاعدتُهُ في النزولِ إلى البحرِ وحينَ عدتُ إلى الكُوخِ استلقيتُ على فِراشِي غيرِ الوثيرِ وغَفوتُ لِيكرِمَني المَنَامُ بِفتياتٍ ثلاثٍ شَهيَّات .

قفزتُ بِأربَعتِي وَنزلتُ السُّلمَ كَالمَجنونِ فَرأيتُ الطقسَ قد انقلبَ كُلِّيَّاً وبوادرُ عاصفةٍ تَلوحُ في الأفق .

أشَارَ عبدُ القادرِ إلى تَجمُّعٍ صَخريّ يَبعدُ عشرينَ مِتراً عَنِ الشَّاطِئ .

كانَت أضواءُ المَحلَّاتِ والمَقاهِي تُتيحُ رؤيةَ القاربِ والأمواجُ تَتَقاذفهُ مَع مِجذافيهِ اللَّذينِ يُلوِّحَانِ فِي الهَواءِ كَيَدِي شَخصٍ على وشكِ الموتِ غَرَقاً.

.ابنُ العَاهِرَة، ابنُ العَاهِرَة، ابنُ العَاهِرَة..

كانَ هَذا كُلُّ مَا قلتهُ وأنَا أندفِعُ كَالمجنونِ مُحتاراً بِالسَّببِ الذي دَفعَ النَّذلَ إلى تَركِ القاربِ هناكَ لِتَبتلِعهُ المِياه.

قذفتُ بِجسدي إلى الماءِ وَرُحتُ أسبحُ بِاتجاههِ مُتجنّباً كُتلةَ الصُّخورِ التي أحفظُ أمكِنَتَهَا عَن ظَهرِ قلبٍ فهيَ مَكانُ صَيدِنَا المُفضَّلُ لِوضعِ الأقفاصِ الحَدِيديَّةِ قُربَهَا فِي القَاع .

لم يكُ ارتفاعُ المُوجِ مَا أزعَجَنِي بَل كَانت قوَّةُ التيَّارِ والرِّياح .

اقتربتُ رويداً مِنَ القاربِ، وكَي لا يَصطَدمَ رأسِي بهِ غُصتُ على الفورِ مُتلمِّسَاً بِيَدِي الطَّرِيقَ المَائِيَّ أَمامِي وَحينَ أَحسَستُ بجسدِ القاربِ تَشبَّثتُ بِهِ وأخرجتُ رَأسِي مِنَ البَحر.

بِيدينِ ثابِتَتَينِ رفعتُ جَسَدِي لكنّ المِجذافَ الذي كَانَ يَضربُ الهواءَ كيفَمَا اتَّفَق بفعلِ التَّيّارِ العَنيفِ أصَابَني .

سقطتُ في الماءِ مِن جديدٍ وحينَ تذوَّقتُ لزوجةً حلوةً مَمزُوجَةً بِالملحِ أدركتُ أنَّ الدِّمَاءَ تَسيلُ مِن رأسي .

شَتمتُ ابنَ العاهرةِ بِغيظٍ أكثر وبقيتُ مُمسِكَاً بِجسدِ القارب .

كانَ المَسَاءُ قد حلَّ تَمَامَاً وَبدأت قَطَرَاتٌ مِنَ المَطَرِ تسقطُ تِبَاعَاً ولم يبقَّ لِي كي أستطيعَ الرُّؤيةَ سِوى القليلُ مِمَّا تُرسِلُهُ أضواءُ المَقاهِي .

تَشبَّثتُ بِحافَّةِ القاربِ مُنتبهَاً لِحركةِ المِجذافينِ ثمَّ بقفزةٍ واحدةٍ أصبحتُ داخِلهُ.

أمسكتُ المِجذافين كَما يليقُ بِهِمَا وَبدأتُ تَعديلَ المَسَارِ بَعيداً عَنِ الصُّخُور .

زادَ ارتفاعُ المُوجِ مَع ازديادِ هُبوبِ الرِّيَّاحِ مِمَّا جَعلنِي أتَخبَّطُ يُمنةً ويُسرى لكنَّ المطرَ كانَ لَطيفاً فتوقَّفَ على حِينِ غرّة وبعدَ أن أصبحتُ على مسافةٍ آمنةٍ داخلَ البحرِ عَدَّلتُ الاتجاهَ أفقياً مُبتعدَاً عنِ المكانِ الذي تركَ فيهِ المُصطَافُ الحقيرُ قاربي وفرَّ هارِبَاً مع أوّلِ موجةٍ عَاليةٍ صَادَفتهُ كَمَا بَدا الأمرُ .

حِينَ غَدوتُ قُبالةَ المَنطقةِ الرَّمليةِ مِنَ الشَّاطئِ . والتي أحفظها أيضاً عن ظهرِ قلب . كانَ عليَّ الرُّجوعُ بِسرعة، هَكَذا.. رحتُ أجذِّفُ بطريقةٍ لا تسمحُ للموجِ بالولوجِ وكُلَّمَا اقتربتُ مِنَ الشَّاطئِ ازدادَ قلقِي وخوفِي مِن اصطدامٍ عنيفٍ بهِ لكنَّ اصطدامَ الخَشبِ بالرَّملِ خيرٌ وأحبُّ إليَّ بألفِ مرَّةٍ مِنَ الاصطدامِ بالصَّخرِ.. وهذا مَا كَان .

لَمَحتُ خيالَ عبدِ القادرِ وهو مُسرعٌ بِاتِّجاهِي وحينَ نزلتُ كي أدفعَ القاربَ خارجَ المياهِ كانَ قد باشرَ الدَّفعَ من الطرفِ الآخرِ فظللنا هكذا حتى أصبحَ القاربُ في مَأمَنٍ على الشَّاطِئ .

ارتميتُ فوقَ الرِّمالِ المُبلَّلةِ لاهثاً لِخمسِ دقائقٍ دونَ أن تكونَ لي القدرةُ على النُّطقِ بِحرفٍ واحد .

.قمتَ بعملٍ رائعٍ أيّها البحّار .

قالَ عبدُ القادر مازحاً وهو يَربتُ على كتفِي بينمَا كُنَّا مُتَّجِهَينِ صَوبَ الكُوخ. هَدَأت وتيرةُ الرِّياحِ وَبَدأت غيومُ العَاصِفةِ المُفاجئةِ تَختفي لتحلَّ مَكَانَها نقاطُ ضوءٍ صغيرةٌ قادِمَة من بدايةِ الزمان .

في الكوخِ عاينتُ مكانَ الجرحِ الذي أحدثتهُ ضربةُ المِجذافِ ثمَّ وضعتُ فوقهُ بعضَ العرقِ لتطهيره .

أخذتُ حمَّامَاً سَريعَاً وارتديتُ مَلابِسَاً سَميكةً لِتدفِئَنِي .

أمامَ كوخِي البَحريّ اتخذتُ مَجلِسِي بعدَ أن صَنعتُ لِنفسِي كأسَاً سَاخِنَاً مِنَ المتَّةِ شربتهُ مع سيجارةٍ لذيذةٍ ومِن خلفِ جبالِ البدروسيةِ بدأَ القمرُ رِحلتهُ الأسطوريةَ في الوقتِ الذي كَانت أخيلةٌ لثلاثِ فتيَاتٍ شَهيّاتٍ تلوحُ في الأفقِ البَعيد.

***

أعجبُ منطقةٍ في العَالم

الحُدودُ الشَّماليةُ لِسوريّا واحدةٌ مِن أعجَبِ المَناطِقِ في العَالم، ربَّمَا تكونُ الأعجَبَ عَلَى الإطلَاق.

مَا مِن سُورٍ عَظِيمٍ يَمرُّ فِيهَا وَمَا مِن أبراجٍ شاهقةٍ هناكَ وبِالتَّأكيدِ لا تُوجدُ فَوقَ أرَاضِيهَا أَهرامَاتٌ مَبنيَّةٌ كانعِكَاسٍ لِنُجومِ المُلوكِ الثَّلاثَة.

كانَ فراس شَاهين يَروي قصَّةَ هذهِ المَنطِقةِ التي خَدَمَ فِيها كَجُنديٍّ من جنودِ الجيشِ الّنظَاميّ لأربعِ سنواتٍ حينَ قاطعهُ عبّاس محمود سَائِلاً:

.وَمَا الَّذي جَعَلَهَا عَجِيبَةً إلَّا وجُودُكِ فِيهَا؟

كانَ عَبَّاسٌ وحيداً لأهلِهِ ولم يَعرِف خِدمةَ الجيشِ أبَداً أمَّا سامِي إبراهيم وحسن صَافي فكانَا طَالِبينِ جَامعيين يتَعمَّدانِ الرُّسوبَ في كُلِّ عامٍ ليتجنَّبا الالتحاقَ بالعَسكريّةِ وجَميعُهم أصدقاءٌ منذُ الطُّفولةِ التقوا هذا المَساءَ في مَقهى القَريةِ احتفالاً بتسريحِ فراسٍ مِن الجيشِ بعدَ أن أصبحَ بِسَاقٍ واحدة .

أشعَلَ المُحارِبُ العَائدُ من الجَحِيمِ سِيجَارَةوحدَّقَ فِي عَينِي عَباس لثوانٍ ثُمَّ قال :

.ليسَ وجودي هناكَ ما جَعَلَها عَجيبةً بَل وُجودُ أمِّكَ .

حَتَّى عَبَّاس لَم يَتمَالَك نَفسَهُ فَضَحِكَ رَغمَاً عَنه .

كانُوا مُعتادِينَ عَلى لِسَانِهِ السَّليطِ، الّلسَانُ الَّذِي زَادتهُ الحَربُ والإعاقةُ فُجُوراً .

.سَأقُولُ لَكُم أيُّها المُخَنَّثُونَ مَا الَّذِي جَعَلَها أعجَبَ مَنطِقَةٍ فِي العَالم .

ذاتَ يومٍ تَمَركَزت قوَّاتنا فِي نقطةٍ تَبعدُ ألفَ مِترٍ عَن قوَّاتِ سُوريا الدِّيمُقراطيّة، الكُرديَّة .

قاطَعَهُ سَامِي وهوَ يَطلبُ نَاراً لأرجِيلتِهِ:

.وَمَا العَجِيبُ فِي الأمر ؟

أمسَكَ فِراسٌ بِعُلبةِ السُّكَّرِ الزُّجَاجِيَّةِ وَأقسم .

.سَأضَعُهَا فِي مُؤخِّرةِ مَن يُقاطِعُني ثانِية، تبَّاً لَكم ولِمَن يُحَدِّثُكُم .

حَسن، الشَّابُ اللَّطيفُ ذو النَّظَّارتينِ الطِّبيَّتينِ نَهَرَ رَفيقيهِ وَدَعَا فِراسَاً لإكمَال حكايتهِ .

أشعَلَ سِيجارةً ثانية وقالَ بَعدَ تنهيدةٍ طويلة :

.الأكرادُ كَمَا تَعرِفونَ تَدعَمُهُم الولاياتُ المُتَّحدة الأمريكيَّة.

الأتراكُ حُلفاءُ الأمريكانِ أيضاً لكنَّ مُناصرةَ الأمريكانِ للأكرَادِ لَم تَكُن تُعجِبُهم لهذا كانَ الأتراكُ يُوجِّهُونَ لَهُم ضَربَاتٍ مدفعيَّةٍ وصَاروخيَّةٍ، وأحياناً يقتَحِمونَ الأراضِي التِي يُسيطِرُ عَليهَا الأكرادُ بَريَّاً.

أوشَكَ عبَّاسٌ على السُّخريةِ من صديقهِ المُقاتِل ليثيرَ غيظهُ بقصدِ الدُّعابةِ لكِّنهُ تذكَّر في اللحظةِ الأخيرةِ أنَّ أمَّهُ ستكونُ حاضرةً أكثر في الحديثِ فأحجَم.

أضافَ فراس :

. نحنُ في الجيشُ السُّوري تدعَمُنا روسيا الاتحاديّة والجمهوريَّة الإيرانيّة وبينَ الحينِ والحينِ كُنّا نقصفُ الأتراكَ خلفَ وأمامَ الحُدودِ فيأتي التَّحَالفُ بقيادةِ الأمريكانِ لِيدافعَ عن الأتراكَ ويقصفَنَا .

الرُّوسُ مِن جَانِبِهم لم يكتفوا بِدعمِنا بل أصبَحُوا يَدعمُونَ الأَكرَادَ، أمَّا الإيرانيونَ فَحَدِّث ولا حَرَجَ عَن عَلاقاتِهم الاقتصادية والأمنيةِ مع الأتراك .

. إلى أينَ ستصلُ برحمةِ أبيك؟

سألَ سامِي بِضَجرٍ فَتَجاهَلهُ فراسٌ وتابع:

. تنظيمُ دَاعِش حَليفٌ للسُّعوديةِ والأتراكِ والأمريكان وكانَ يُهَاجِمَ الجيشَ الحُرَّ الذي أسَّستهُ المُعارضةُ السّوريةُ مع بدايةِ الحربِ والجيشَ النِّظامي في كثيرٍ من الأحيان .

السُّعوديَّةُ وقطر كانتا تُموِّلانِ الجيشَ الحُرَّ وَجَبهة النُّصرة .

نحنُ في الجيشُ الوطني كُنَّا نُهاجِمُ تنظيمَ داعش تارةً والجيشَ الحُرَّ وجَبهَةَ النّصرةِ تارةً أُخرى .

في تلكَ المنطقةِ مِنَ الشَّمالِ السُّوري يَا أصدقاء، أصبحتُ مَجنوناً رَسميَّاً .

ذاتَ يومٍ سألتُ قائدَ كتيبتنا :

. سَيِّدي، بِرَبِّكَ قُل لِي، مَن يُحارِبُ مَن وَمَن حَليفُ مَن؟

مَن يَقصفُنَا وَنَحنُ نَقصفُ مَن؟

أجابَ وهوَ يُدخِّنُ مِن غليونهِ اللَّعين :

.عِندَمَا يَكونُ الغُبارُ كَثيفاً عَليكَ أن تنتظرَ انقِشَاعَهُ لِتُبصِرَ جَيّداً .

كانَ المَقهى المُتواضِعُ في تلكَ القريةِ السَّاحليةِ النَّائيةِ غاصّاً بِالزَّبائِنِ، منهم لاعِبُو الوَرَقِ ومِنهم المُتسَامِرون ومُدمنو الأرجيلةِ.

رَفَعَ فِراسٌ يَدهُ فاقتربَ النَّادل.

طلبَ منهُ أربعَ كؤوسٍ مِنَ الشَّاي وقال:

.طوالَ خِدمتي في تلكَ المَنطقةِ أيُّها الأصدقاءِ إلى الوقتِ الذي خسرتُ فيهِ ساقي حاولتُ أن أفهمَ كيفَ تَجري الأمورُ لكنَّني فَشِلت .

حتَّى الآن، لم ينقشِع ذلكَ الغُبارُ الكَثيفُ كي أرى بِدِقَّةٍ وكَأنَّمَا آلافٌ مِنَ الأحصنةِ تَركضُ هناكَ تحتَ وابلِ الرَّصَاصِ والقذائفِ والصَّواريخ .

كلَّ مَساءٍ، حِينَ أفتحُ التِّلفاز لأسمعَ الأخبارَ أرى كائناً بِربطةِ عُنقٍ يُعَرِّفونَ عنهُ بصفةِ المُحلِّلِ السِّياسِي.

يُحدِّثُنَا مِن لَندُنٍ مَرَّة، ومَرَّةً من برلين .

مِن روما تارةً وتارةً من الصِّين، أو مِن أحَّدِ اسطبلاتِ الإعلامِ العربي ثمَّ يَشرحُ بلغةِ العارفِ كل شيء وبِكلِّ وقاحةٍ مَا الذي يَحدثُ في تلكَ المَنطقةِ، أعجب منطقةٍ في العالم .

ثمّ طلبتُ كأساً

غسلتُ الجرحَ بالماءِ لكنَّ النزيفَ لم يتوقَّف فتابعتُ حلاقةَ لحيتي وأنا أراقبُ الدَّمَ الممزوجَ برغوةِ المعجونِ البيضاء واكتفيتُ بعدَ الانتهاءِ بوضعِ قطعةٍ صغيرةٍ من منديلٍ فوقَ الجرح.

صنعتُ كأساً من الشَّاي ثمَّ أشعلتُ سيجارةً ورحتُ أتابعُ التلفازَ بِمللٍ لكن، ليسَ لوقتٍ طويل.

ارتديتُ ملابسي دونَ أيِّ حماسةٍ وخرجتُ من الغرفةِ ثمَّ بعدَ ساعةٍ من المشي وقفتُ أمامَ مدخلِ الحَانة .

على الرغمِ من أنَّها المرة الألف ربما التي أزور الحانةَ فيها، لكن لسببٍ لا يعلمهُ سوى الله تذكرتُ المرَّة الأولى التي دخلتُ فيها هذا المكان قبل عقدٍ منَ الزَّمن.

كنتُ قد وصلتُ قبلَ أيَّامٍ إلى دُبي بكاملِ شعورِ الغربةِ والقهرِ والحزنِ ولم أكن قد دخلت حانةً من قبل .

يومها، لاحظَ مُضيفي المؤقَّت في البلادِ الجديدةِ وهو خالي همَّاً كبيراً مُرتَسِمَاً في عينيَّ فقال:

.تعالَ، سنذهبُ إلى مكانٍ ظريف..

مَشينا دونَ أن أعرفَ إلى أين .

كنتُ أرتدي بنطالاً من القماشِ الأسودِ وقميصاً مُخطَّطاً جَعلني أبدو كحمارِ الوحشِ كما كنتُ أحملُ في يدي جريدةً دونَ علبةِ الثقابِ لأنّ في جيبي، ولَّاعة.

للوهلةِ الأولى لم استطع الرؤية جيداً بسبب الأضواءِ الخافتةِ ودخان السجائر ثم أصبح كلّ شيءٍ واضحاً .

أكثرُ من خمسين امرأةٍ شبهِ عاريات انتشرنَ في الحانةِ التي ولجناها بعد اجتيازنا بهوَ الفندقِ الفخمِ ذي العلامةِ الزَّرقاءِ المُطلَّةِ على الخورِ العَريض .

كانَ ذلك المشهد من أجملِ مَا رأيتُ في حياتي .

أنا واحدٌ من الفتيانِ الذينَ لعب معهم الحظ أو التوفيق أو القدر (سموه ما شئتم) دوراً في معاشرةِ النساءِ منذ مرحلةٍ مبكرة جداً وقد تكونُ بالنسبةِ للبعضِ لا تُصدَّق لكنَّ ما رأيتهُ في تلكَ الحانةِ كانَ مُختلفاً عن تجاربي السابقة في سوريا، كُلِّيَّاً .

راحَ الخالُ يتنقلُ من امرأةٍ إلى أخرى، يصافحهنَّ ويقبّلهنَّ بلا أحمٍ أو دستور.

شعرتُ بالحنقِ والغيظ ..

لم يكتفِ الرجلُ بذلك بل بدأ يتحدثُ مع إحداهنَّ باللغةِ الروسية.

هنا صرخت :

.يا ابنَ الربِّ، متى تعلمتَ الروسية؟

أجابَ وهو يحضنها ويداعبُ خصرها:

.في هذهِ الأكاديمية تتعلمُ اللغات بسرعةٍ عجيبة فبادرِ الانتساب.

ابتعدتُ عنهُ ووقفتُ وحيداً أحملُ الجريدة في يدي .

هل تعلمونَ ما الذي يشبهُهُ منظرُ رجلٍ داخلَ حانةٍ بيدهِ جريدة؟

إنه كمنظرِ رجلٍ يدخلُ دارَ العبادة بالمايوه.

تداركتُ الأمرَ فألقيتُ الصحيفةَ في سلَّةِ المُهملاتِ ثمَّ وجدتُ كرسياً شاغراً إلى البَارِ فجلستُ وطلبتُ زجاجةً من البيرة .

أشعلتُ سيجارة وانتبهتُ إلى فتاةٍ شقراء فارعة الطولِ وقف رجلٌ خمسيني وصلَ للتوِّ ملاصقاً لها وشرعا يتحدثان .

ما هي إلا دقيقة أو اثنتان حتَّى وضعَ يدهُ على مؤخرتها.

قلتُ لنفسي:

.لا بدَّ أنها ستوبخهُ على فعلته.

لا يمكنُ لي أن أصفَ مشاعري وهي تطلقُ ضحكة خلاعية لم أسمع مثلها من قبل، قبل أن تذهبَ معه.

اكتفى الخالُ من محادثةِ النساءِ وحين جلسَ إلى البار قربي سألتهُ بانفعال:

.الآن ستخبرني متى عرفتَ هؤلاء الفاتنات.

بعد أن ضحكَ أجاب:

.أنا لا أعرفهنَّ أيها الأحمق بل أتعرفُ إليهن.

هؤلاء جميعهنَّ عاهرات، لا يحتاجُ الأمرُ إلى خطَّةٍ خمسيةٍ كي تتحدثَ إليهن .

الآن فهمت إلى أين ذهبت الفتاة مع ذلك الرجل، رحمَ الله أيامَ كنتُ أضعُ خططاً حربية كي أتقرَّبَ من إحداهن.

مضت ساعةٌ من الزمنِ أو أكثر بقليل كنت خلالها أستكشفُ بعينيَّ هذا الوكرَ الفردوسي ثم فجأة اقتربت منّي حسناءٌ روسية وقالت بإنكليزيةٍ مُكسَّرة:

.ما اسمك؟

تصبَّبتُ عرقاً وأجبتها بلغتي الإنكليزية البائسة.

بعدَ ذلك سألتني عن المكانِ الذي أسكنُ فيه وكم يبعدُ عن الحانةِ، وهكذا توالتِ الأسئلة .

قلتُ لنفسي :

. يا ولد، فرصةٌ أتت إليكَ بقدميها الشَّهيتينِ فانتهزها وضع يدكَ على مُؤخِّرتها اللذيذة.

على الرغمِ من أن يدي كانت ترجفُ في تلكَ اللحظةِ إلا أنني عقدتُ العزمَ (على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ) ثمَّ فعلتها.

يا لملمسِ تلك المؤخرةِ المُكوَّرة، حتَّى وأنا أكتبُ الآن أستطيعُ الشُّعورَ به.

ابتسمت الفتاة وقالت :

.كم ستدفع؟

أجبت:

. يا صديقتي، لقد سافرتُ من بلدٍ إلى بلدٍ حاملاً في جيبي عشرةَ آلاف ليرة سورية فقط فماذا تريدينني أن أدفع؟ للأسف لن أستطيع.

اكفهرَ وجهها وامتقع ثم مدت يدها لتنزع أصابعي الملتصقة بمؤخّرتها وقالت:

.تستطيعُ أن تضعَ يدكَ هنا لكن لا مالَ معك؟ يا لكَ من وقح .

هكذا صرخت ثم انصرفت.

تذكرتُ ذلكَ وأنا أدخلُ هذا المساءَ غير آبهٍ كثيراً بالفتياتِ الموجودات .

بعدَ أن عملتُ في هذه البلاد وصحبتُ العشرات من نساءِ الحانات خلال السنواتِ العشر الماضية أصبحَ الأمر عاديًّاً.. مملاً.. وأحياناً مقرفاً.

طلبتُ كأساً من البيرة ثم أشعلتُ سيجارة ورحتُ أدخن.. بملل.

***

فِي بسنادا تحتَ المَطر

إنَّهَا تُمطِرُ فِي بسنَادا .

عَلى طولِ الطَّريقِ مِنَ المَفرقِ إلى أرضِ الخَضرا مَزَارِيبُ الأسطِحَةِ تَعزفُ بِلا تَوقُّف.

مَا أعذَبَ صوتَ المَزاريبِ في الشِّتاء.

قلتُ للصَبيَّةِ الحُلوة:

.الجَميعُ مُختَبئونَ فِي بيوتِهم.

أنتِ وأنا وَحدنا فِي هَذا الشَّارِعِ الهَارِبِ مِن لَعنةِ الزَّمن، أريد قبلة.

الابتِسامَةُ ارتَسَمت عَلى شَهقَةِ الشَّفتينِ بِخجلٍ ثمَّ عَلا الكتفُ وَحطَّ فِي قلبي.

.أليسَ هذا الرَّفضُ أشهَى مِن ألفِ قُبلة؟ !

يَا إلهَ السَّماءِ الَّذي أبدعَ النِّسَاء، كم أنتَ فنَّان .

وَدَّعتُ الصَّبية وأكمَلتُ طَريقِي.

إنَّهَا تُمطِرُ فِي بسنَادا .

شجرة الشُّوباسِ المُتَاخِمَة للبيدرِ أكادُ أسمعُ صَوتَ ضِحكَتِهَا.

أصدقائِي المَجانين لا شكَّ يَمزحون، طبعاً لم يكونوا كذلك .

جَميعُهم هنا يلعبونَ الكُرة .

إلى الجحيمِ. ألقيتُ حقيبةَ المدرسةِ وركضتُ حتَّى لَهثت.

كُتبنا تَبلّلت وملابسنا اتَّسَخت ووجُوهُنا امتزجَت بالوحلِ المُقدَّس.

كُرةُ قدم، ملعبٌ تُرابي، عُصبَةُ مَجانين في الصَّفِ التَّاسِعِ بمدرسةِ سميع كوسا، مَطرٌ غزير...

هذا كلُّ ما هنالك ..

.ويسألونكَ عن السَّعادةِ قُل...

مِن الجيدِ أنَّ عُلبة التبغِ في الحقيبةِ لم يُصبهَا البَلل.

أشعلُ سيجارة عندَ معصرةِ الزَّيتونِ وأكملُ الطَّوَاف.

خفّ هطولُ المَطرِ لكنَّهُ لم يتوقف، رذاذٌ على رذاذ..

أشجارُ الزَّيتونِ والصبَّارِ تشدو والقصبُ المَخمورُ يميل.

قلتُ للسَّاقيةِ القريبةِ من بيتنا :

.اضحكي للصورة ...

.وأينَ الكاميرا؟

هضبةٌ ترابيةٌ صغيرةٌ إلى اليسار، التينةُ العجوز تقصّ الحكايا للتخوم..

شجيراتُ الليمونِ تبحثُ عن أجوبةٍ لأسئلتها الوجودية، الدربُ الصغيرةُ التي صنعتها أقدامنا تجاورهُا الأعشابُ البريَّة هنا وهناك.

والعطر، يا للعطرِ المنبعثِ من جسدِ الأرضِ والمطرُ يداعبهُ حيناً ويلجهُ أحيان..

قلتُ :

.لا كاميرا عندي أيتها العزيزة.. عندي قلبي .

أمّي تقفُ وحيدة في المطبخِ تطهو حساء العدس والبخارُ يملأ الأرجاء..

.كيفَ حالكِ يا حبيبة؟

.تتمعَّنُ أمّي بملابسي المتَّسخة والمُبلَّلة، بلسعةِ البردِ فوقَ أنفي..

تضحكُ لا كمَا يضحكُ البشر، الملائكة وحدهم يضحكون هكذا..

.إلى الحمَّامِ يا شقي.. سيكونُ الغداءُ جاهزاً بعدَ ساعة.

أدخلُ غرفتي القديمة..

شبكة الصيدِ المُعلّقة بالسقفِ ما زالت مُتدلّية أكثرَ من اللازم، عليَّ ترتيبها من جديد.

مكتبة أبي الخشبية التي سطوتُ علمها وزدتُ كتبها عن يميني ترحبُ بي..

. لينين، ماركس، المتنبي، صنع الله ابراهيم، رسول حمزاتوف، نزار قباني، تولستوي، أبو نواس، حيدر حيدر، حنا مينة، جنكيز إيتماتوف، نيكوس كازانتزاكي .....

جميعهم يرحبون بي حينَ ألقي السلام:

.وعليكَ يا هذا السلام..

استلقي على سريري المجاورِ لسريرِ مجد..

أشعلُ سيجارة وأتأملُ صورَ سيبيل كان ومونيكا بيللوتشي التي تملأ جدرانَ الغرفة..

يُذكِّرني عبد الحليم بينما تسرحُ عيناي بجسدِ شجرةِ الرمّان الملاصقةِ لنافذتي الضبابية وقطراتُ المطرِ تعانقه..

.على طول الحياة.. نقابل ناس ونعرف ناس..

ونرتاح ويا ناس ع الناس.. وبيدور الزمن فينا .. يغيَّر لون لياليناا..

ونتوه بين الزحام والناس ويمكن ننسى كل الناس.. ولا ننسى..

حبايبنا ..

أعز الناس..

ثم أسمعُ صوتَ أمي ينادي...

***

الفهرس

1.	معاون شوفير	7
2.	ذات يوم	11
3.	الحاكورة	15
4.	القبطان	19
5.	الوطن	21
6.	الجنازة	25
7.	الموهبة	27
8.	استراحة إلهية من الحرب في تلك البلاد	31
9.	رغيف خبز	33
10	الأحمق	37
11.	عطرها الممزوج بالعرق	41
12.	وادي قنديل	45

13. شخص لن يفتقده أحد 49
14. المرأة ذات القميص الخمري 53
15. في ذلك الزمن كان الكتاب هدية حلوة 57
16. قصتي مع الرئيس 61
17. خيمة النخيل في بسنادا 67
18. لحن سوري شجي 71
19. الجائزة 75
20. حدث في سوريا ذات حرب 79
21. لوحة غريبة على جدار كهف 83
22. الطريق إلى دمشق 87
23. كأس من النبيذ للشخص الغريب 93
24. شارع الأميركان 97
25. أثر الفراشة 101
26. نافذة صغيرة 105
27. أمسية عادية في مقهى رخيص 107
28. الغرفة العتيقة 111
29. الزوجة الواقفة وحدها 113

30. المبغى 117
31. الجندي والفتاة 125
32. حياة افتراضيّة 131
33. الغناء تحت الثلج 133
34. قصة حزينة جداً 137
35. وقت إضافي 139
36. الفستان الأخضر 143
37. الباخرة 147
38. فتاة بريطانيّة على شاطئ البدروسية 151
39. مسعد يا تنور 155
40. هل من الممكن 159
41. إلى باب جنة 161
42. العاصفة 165
43. أعجب منطقة في العالم 169
44. ثم طلبت كأساً 173
45. في بسنادا تحت المطر 179

حازم ضاحي شحادة

شاعرٌ وكاتبٌ سوري

حاصلٌ على إجازة في الإعلام من جامعة دمشق

ويعملُ في ميدان الصحافة منذ عشرين عاماً.

صدر لهُ ديوانُ شعر بعنوان "أوراق نساء".

نُشرت قصائدُه وقصصهُ في العديدِ من الصحفِ،

والمواقعِ الإلكترونيّة السورية والعربية.